

71

أسطورة الظلال

د. أحمد خالد توفيق

المقدمة

طبعًا أنا د . رفعت إسماعيل .. هذه سلسلة (ما وراء الطبيعة) وأنتم القراء ..

هكذا يمكن أن نقول إننا قمنا بعملية ضبط المصطلحات ، وعرفنا من هو من ، وعرفنا دوره بالضبط..

كنت فى المرة الأخيرة قد حدثتكم عن ناد يضم لعضويته الغيلان ، أو يضم ـ بعبارة أدق ـ من يتوسم فيهم القدرة على أن يكونوا من الغيلان .. لاحظ أننا لا نضع حلقات الرعب فى سياق السلسلة الأصلى ؛ لأنه لا ترتيب زمنيًّا لها .

هكذا يمكننى أن أحدثكم عن ... عن ... لا .. لا داعى للكلام عن (الثقوبات) ؛ فهى قصة مرعبة وغير مناسبة عامة . جميل أن تضع رقابة خاصة على ذكرياتك فلا يخرج منها إلا ما تراه مناسبًا ..

ماذا عن (كيريالا) ؟.. لا .. موضوع غير مناسب البتة ، وأعتقد أننى لن أحكيه أبدًا ... لا أحد يحب العيون المفقوءة على كل حال .. هذه عادة بشرية منذ أيام (أوديب) ..

أسطورة الظلال ! كيف لم أحكها بعد ؟!

إنها مسلية وبها قدر لا بأس به من الرعب . أعتقد أنها تناسب الجميع ، خاصة الأطفال .. كما أنها تحتوى موعظة أخلاقية بسيطة ، هى ألا تثق فى الأشخاص الذين لا ظلال لهم . هى نصيحة قديمة قِدَم الرعب نفسه ، لكننا ننساها دومًا ..

الأسوأ ممن لا ظل لهم أولئك الذين يتصرف ظلهم بشكل منفصل .. يبدو أن السينما التعبيرية الألمانية قتلت هذا الموضوع بحثًا فى أوائل القرن العشرين والأفلام الصامتة الكابوسية الباردة . إن من شاهدوا فيلم (نوسفيراتو) ظلوا ينظرون إلى الظلال أكثر مما نظروا إلى الأجسام الحية .

هناك قصة لـ (هانز كريستيان أندرسن) عن الرجل الذى قرر ظله أن يتمرد ويعيش حياته الخاصة ، وصار رجل أعمال ناجحًا !.. وهناك قصة شهيرة لفتحى غانم الروائى العظيم عن رجل فقد ظله ، لكن الظل كان مجازًا طبعًا .. لكننا اليوم نتحدث عن قصة مختلفة بعض الشىء ..

(إدجار آلان بو) تحدث عن الظلال المخيفة التى يبعثها الغراب ، وعن نظرته الشريرة .

لا يمكنك أن تعد الأعمال الأدبية التى تتحدث عن الظل ..

تفسير ذلك سهل على كل حال ..

تصور أنك وأنت تطالع هذه السطور رأيت فوق صفحة الكتاب ظل شخص .. ظل يد مخلبية ترتجف فى جشع وتدنو منك من الخلف ..

للحظة يفلت قلبك ضربتين .. ينتصب شعر رأسك ..

تلقى بالكتاب جانبًا وتثب ناظرًا إلى الخلف ..

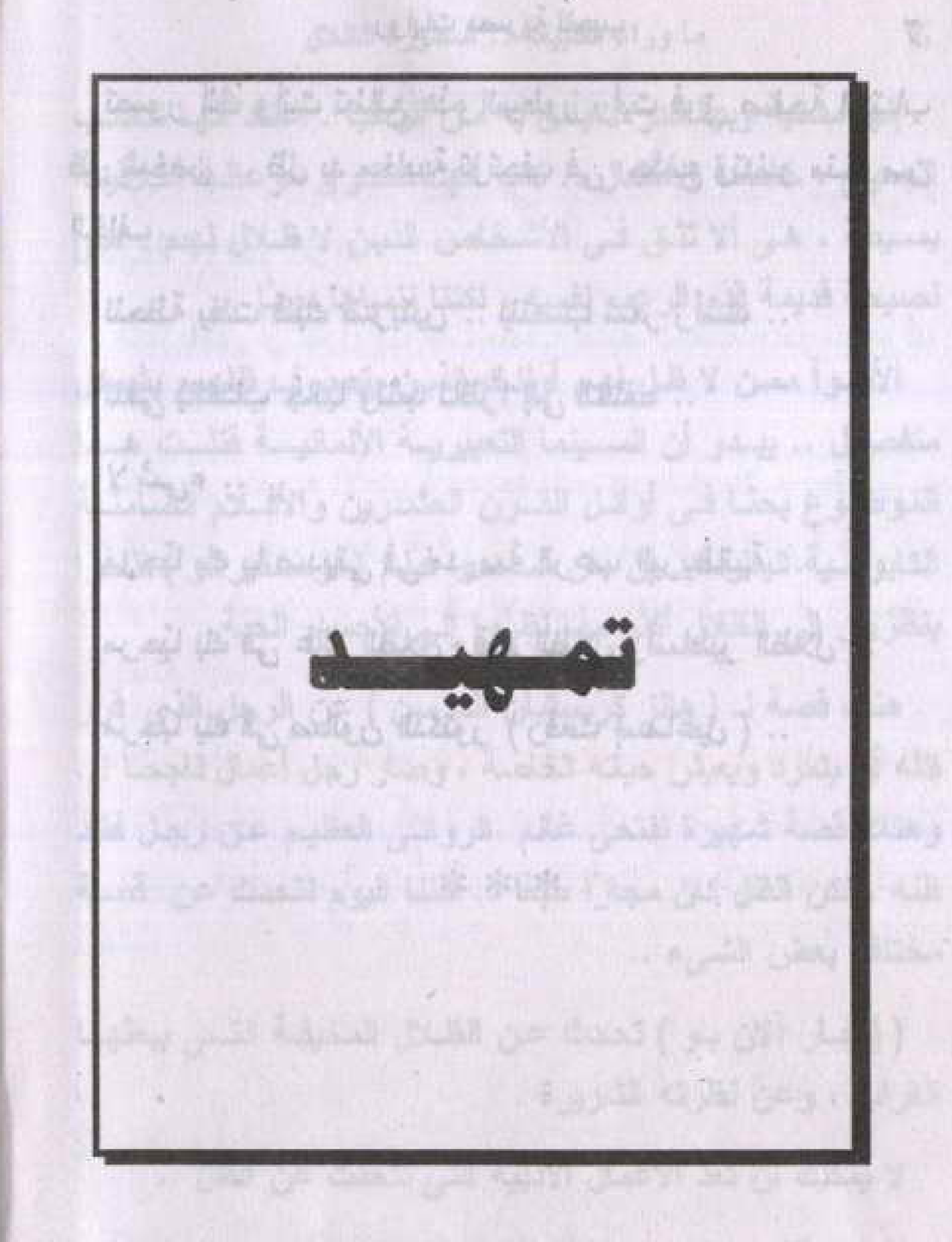
لا شىء ..

مرحبًا بك يا صديقى فى مدرسة الرعب البريطانية ..

مرحبًا بك فى عالم الظلال وقوم الظلال وأساطير الظلال ..

مرحبًا بك فى صالون الدكتور (رفعت إسماعيل) ..

* * *



تقوم (سالى) بتنظيف الشقة بالمكنسة الكهربية .. الضجيج يصم أذنيها ، لكنها تحاول أن تتابع ما يدور على شاشة التلفزيون .

هنـاك أشياء مهمـة كثيرة على الشاشة : سيدة فى الخمسين تتكلم مع رجل فى الثلاثين ، وهما جالسان فى الاستوديو . كل هذا مشوق فعلاً كما ترى .. إنها الإثارة فى صورة برنـامج .. الأهم أن السيدة متحمسة ولا تعطى الرجل فرصة للكلام ، وكان هذا الموقف يروق لسالى كثيرًا ؛ لأنها تشرع فى تخيل مـا يقولان ، وتقوم بتركيبه على خيالها الخاص ..

مثلاً هى تشاجرت مع زوجها بسبب فواتير ثيابها الجديدة ؛ لذا راحت تتخيل أن السيدة تقول للرجل :

ـ « أنت رجل بخيل .. سـالى ترهق نفسها وتُعنَى بـالبيت .. ليس كثيرًا على البائسة أن تختار ثيابًا تروق لها .. »

والرجل يقول فى عصبية :

ـ « هناك فارق بين أن تأخذ آخر سنت عندى ، وأن تأخذ آخر سنت ليس عندى .. أسمح لها بتبذير الموجود فعلاً ، لكن لا أسمح لها بتبذير ما ليس معى ، ولسوف يحاصرنى بالديون .. »

ظلت تتابع هذه المحادثة الخيالية وهى تنظف السجادة فى عصبية .. تصورت أن السجادة زوجها ، وراحت تنظفها بعنف أكثر ، حتى كادت تهشم اليد ..

سالى أم أمريكية من الطراز الذى ينتج بالآلاف هناك .. يطلقون عليه اسم (أم كرة القدم Soccer mom) ؛ وهى الأم متوسطة التعليم والذكاء ، التى تحترم كل القيم الأمريكية ، وتثق بأن الأمريكان أروع شعب فى العالم ، وهى حريصة على صحة أولادها التعساء ؛ لهذا تأخذهم إلى كل أنواع الدورات التدريبية ؛ بحيث لا تسمح لهم بلحظة حرية واحدة .. تأخذهم إلى دورات سباحة وبيزبول وكونج فو وكرة قدم .. تفعل هذا وهى تقود سيارة عتيقة صغيرة الحجم .. تقودها بطريقة مرعبة ؛ بحيث تصير خطرًا داهمًا على الطرقات . كل أمريكى يعرف أن أمهات كرة القدم لا يوقفن سياراتهن إلا ويحطمن مقدمة السيارة التى خلفهن ومؤخرة السيارة التى أمامهن ..

لكن هذه الأم تتابع أولادها جيدًا وهذه مَزِيَّة مهمة فى هذا المجتمع .. كما أنهن يعرفن كيف يحتفظن بأزواجهن فى مجتمع تسود فيه ظاهرة الوالد الواحد .. أب فقط أو أم فقط ..

انتهت من تنظيف قاعة الجلوس ، فأغلقت جهاز التلفزيون .

الآن حان وقت تنظيف غرفة (ريكى) ..

إنه فى المدرسة .. ريكى الآن فى الرابعة عشرة من عمره ، وهو مراهق .. مراهق أمريكى ، بما يعنيه هذا من هول ورعب ..

لقد صار وقحًا صموتًا .. كل كلامه تَحَدٍّ ، وكل نظراته عدوانية .. رأيه الخاص أن أباه وأمه هما أغبى شخصين فى العالم ، والوحيدان اللذان لا يفهمانه ..

طبعًا لم يعد يفكر إلا فى الفتيات . (ريتا) صديقته فى المدرسة ، وهى فاتنة على الطريقة الأمريكية .. أى إنها (ساخنة) ، باعتبار الأمريكان لا يقولون : (جميلة) أبدًا ..

الولد لا يفكر إلا فى ريتا .. طقوس المراهقة الأمريكية من المواعدة والدعوة للرقص فى حفل المدرسة السنوى ، والذهاب لفيلم ..

هذه أشياء لم تبتلعها (سالى) ولم ترتح لها . تمنت لو كان بوسعها أن تفعل مثل آباء الزمن القديم ، فتحطم رأس الفتى وتحبسه فى حجرته . لكن الزمن أقوى منها .. المجتمع الأمريكى يجرها إلى حيث لا تريد ، وإلى حيث تصير مثل أى أم أمريكية أخرى ..

لا تعرف كم سيمر من وقت قبل أن يقدم لـه صديقـه أول سيجارة محشوة بالماريجوانا أو أول قرص مخدرات .. سوف يتعاطى ابنها الأحمق هذه الأشياء ؛ لأنه يريد أن يتحداها ، ويريد أن يشعر بأنه كبير ناضج ..

هو كذلك معتوه ؛ لهذا سيقع سريعًا فى هوة الإدمان .. ليس معتوهًا فحسب ، بل هو مجنون .. سيأخذ جرعة زائدة ويموت ..

كل العلامات فى حجرته تدل على المصير الأسود الذى ينتظره .. على الجدار هناك أكثر من صورة لـ (راكيل ويلش) ملكة السبعينات ، فى ثياب صُممت خصيصًا لتثير جنون الأم . هناك سماعات عملاقة بحجم طفل ، وبالطبع تتصل بجهاز كاسيت يابانى الصنع ، تراصت جواره شرائط (روك آند رول) . على الجدار صورة عملاقة لـ (مانسون) ملك الهيبيز الذى ينتظر الحكم عليه بالإعدام ، وعدة ملصقات لفرقة مجنونة اسمها (رولنج ستونز) لا تعرف عنها سوى أن أفرادها يعتقلون فى كل الجمارك بتهمة تحريز مخدرات.

تذكرت طفلها صغيرًا متوردًا أشقر لا يكف عن الضحك ، وهو يلعب مع أرنب صغير أبيض .. فدمعت عيناها ..

كان ملكها بالكامل ، وكان يحبها حقًا ..

لماذا يكبر هؤلاء الأوغاد ؟!.. لماذا ؟!

راحت تنظف الغرفة غارقة فى خواطرها .. بالطبع لم تنس تفتيش الأدراج بحثًا عن السيجارة المحشوة / المِحقَن / لفافة السيلوفان .. لا تدرى كيف يبدو المخدر ، لكنها ستعرفه عندما تراه ..

لا يوجد شىء .. المكان نظيف .. لكنه لن يظل كذلك للأبد ..

ثم رأت على منضدته صورة كبيرة ذات إطار .. هناك صورة لتلك الخنفسة (ريتا) .. طبعًا وهى تنظر لها فى تحد محاولة إغاظتها .. نعم يا مسز (جراى) .. أنت ربيته وحافظت على صحته كى آخذه أنا منك وأعلمه كيف يكرهك .. شكرًا على لا شىء .. نيا نيا نيا ه !!

ثم تخرج لها لسانها ..!

هناك صورة أخرى ذات إطار ، ولها حامل يجعلها تنتصب عمودية . إنها صورة لريكى مع رفاق مدرسته يقفون فى حقل للعب البيزبول .. ريكى يقف فى الوسط فخورًا والمضرب على كتفه والكاسكيت على رأسه مقلوبًا ، وقد بدا عليه الفخر ..

لم تر هذه الصورة من قبل .. على الأرجح التقطت أول من أمس لأنه كان يلبس هذا القميص يومها . هذا ملعب المدرسة .. فلابد أنهم طبعوا الصورة وثبتوا لها إطارًا فى يوم واحد .

صورة جميلة .. لكن من التقطها أحمق ؛ لأن الشمس خلف الصبية لا أمامهم ، وهى على اليسار قليلاً ؛ مما جعل وجوههم مظلمة ، قد ارتمت ظلالهم إلى اليمين . أى مغفل يعرف أنه لابد أن تكون الشمس فى وجهك ما لم يكن الظل مطلوبًا لغرض درامى ما ..

نظرت إلى الظلال على العشب ، وشعرت بأن شيئًا ما ليس على ما يرام .. ثمة شىء ناقص ، لكنها لا تعرف ما هو ..

فتحت درج ريكى ، وأخرجت العدسة العملاقة ، وألصقتها بعينها ، وراحت تتفحص العشب عند أقدام الصبية ..

بالفعل .. هناك ظل لكل صبى فى الصورة .. ما عدا ابنها !

* * *

ظلت تنتظر عودة ريكى من المدرسة ، وهى تعد الطعام فى المطبخ ؛ لأنه يعود عصبيًا متلهفًا على العشاء ..

زوجها يعود فى السابعة مساء ، فتتناول عشاءها معه ..

خطرت ببالها الصورة ، لكنها لم تعلق أهمية على ما وجدته . منذ متى كانت خبيرة تصوير ؟!.. لم يخطر ببالها قط التأكد من ظلال الناس فى الصور ، فلربما كانت تختفى فى صور كثيرة .. إن ألعاب الضوء لا تنتهى .. لقد رأت السراب وكيف يبدو فى

صحراء أريزونا .. وكانت مستعدة لأن تقسم إن هذا جدول ماء يترقرق .. لولا أن زوجها أكد لها أنه سراب ..

وفى بعض الأمسيات الصيفية يبدو القمر المكتمل قريبًا ، لدرجة أنها لو قذفت حجرًا لأصابته وأسقطته ..

نعم .. الضوء مخادع كبير مثل ريكى ..

عندما دق جرس الهاتف رفعت السماعة وأصغت .. بدأ وجهها يتلون ...

فى البداية كانت ضحكة ، ثم تحولت إلى ثغر مفتوح ، ثم تقلص مريع على جانبى الفم ..

سيدتى .. المستشفى .. نريدك حالاً .. ريكى جراى هو ابنك .. أليس كذلك ؟

تسقط السماعة من يدها .. ترفعها من جديد لتطلب زوجها فى عمله . لم تسل دمعة من عينيها ، ولم يتغير صوتها ؛ فقد كانت لا تصدق ..

- « نورمان .. المستشفى .. يقولون : إن ريكى سقط فى المدرسة بلا سبب !.. يقولون : إن حالته خطيرة .. يجب أن أذهب فورًا .. هل تصدق هذا الكلام الفارغ ؟.. هل تصدقه ؟.. ها ها ها ها !.. »

وراحت تضحك بلا توقف .. وتضحك ..

صوت زوجها المعتنى المذعور يتكلم .. لكنها لا تسمع ..

هى تضحك .. تضحك ..

* * *

الجزء الأول

بيت الظلال الحائرة

يحكيه رامى عطية

-1-

لم تكن حياتنا سعيدة على الإطلاق ..

عندما أبتعد عن الرقعة أدرك هذه الحقيقة ، والتى كنا لا نلاحظها عندما كنا نمارس تلك الحياة فعلاً . أنت منهمك فى الذهاب للمدرسة .. فى الاتصال بأصدقائك .. فى ترتيب طريقة للاستمتاع بوقتك .. هذه الأمور تدور لكنك لا تهتم بها كثيرًا ..

أبى مهندس فى العقد الخامس من العمر ، من النوع العصبى الذى ينفجر بسهولة .. قيل لى : إن هذا النوع يتمتع بصحة طيبة ؛ لأن انفجاراته تخرج على الفور .. لكن أبى كان مريضًا وكان يتعاطى أدوية كثيرة ..

أمى كانت من طراز آخر تمامًا .. إنها شديدة البرود والهدوء الداخلى . لم أرها يومًا منفعلة أو ترتجف غضبًا . كانت معلمة أصلاً .. لكنها تقاعدت لأن أبى طلب منها ذلك ..

ـ « لا أحتمل أن أتصورك فى الحافلة يحتك بك هذا وذاك .. »

ـ « يمكنك أن توصلنى بالسيارة .. »

كانت عندنا سيارة وقتها ، لكن كان أبى يقول :

ـ « لا أحتمل أن أراك فى العمل يكلمك هذا وذاك .. »

لكنها لم تشعر قط بأنه يحبها .. لم تكن هذه غيرة ، ولكنها حاسة امتلاك مبالغ فيها . مثلما يحرص المرء على إخفاء بقايا طعامه فى الثلاجة .. هو لا يغار على الطعام ، لكنه يشعر بغريزة امتلاك قوية .

لم يكن أبى يحبها .. أنا أعرف هذا يقينًا ..

على الأرجح لم تكن هى كذلك تحبه . غير أننى ـ أشهد ـ رأيت منهما حرصًا بالغًا على تربيتى أنا و(منى) أختى ، وعلى ألا نشعر بأى شىء من الزلازل المستمرة فى هذا البيت ..

كانا يتشاجران وتسمع أبى يصرخ بأعلى صوته .. تفتح باب الغرفة فتجدهما صامتين يبتسمان .. تتساءل :

ـ « هل هناك مشكلة ؟.. »

فيردد أبى كالببغاء :

ـ « هل هناك مشكلة ؟.. »

ـ « سمعتكما تتصايحان .. »

ـ « تلك التمثيلية فى التلفزيون .. كل الممثلين يصيحون اليوم ، ويحسبون هذه براعة تمثيل . أليس كذلك يا هالة ؟.. »

تقول أمى ساهمة وهى تنظر إلى شاشة التلفزيون :

ـ « بلى .. بلى . يتصايحون .. كلهم كذلك .. »

تغلق الباب وأنت تقول لنفسك : إنهما يكذبان ...

لن ينفصلا على كل حال .. أنت تعرف هذا جيدًا ... ليسا من هذا الطراز ، فهما مهتمان بالأطفال .. هما من نمط الذين ينفصلون بالطلاق فى سن الثمانين ؛ لأنهم لا يطيقون الحياة معًا يومًا واحدًا بعد رحيل الأطفال ..

لو أننى وأختى (منى) هلكنا اليوم أو تركنا البيت ، فلن يظلا معًا خمس دقائق أخرى ..

الآن .. اسمح لى أن أقدم لك نفسى .. (رامى عطية) .. طالب فى السنة النهائية بكلية العلوم . أختى فى الصف الثانى الثانوى ..

من ناحية الشكل أنا لست منفرًا .. لست أوسم من رأيت ، لكن وجهى مريح ، فيه رجولة وصدق . من الناحية المادية لسنا فقراء ، لكننا لسنا أثرياء . نحن نشبه الكثيرين من المصريين الآخرين الذين يطلقون عليهم (الطبقة الوسطى) .. نأكل اللحم أكثر أيام الأسبوع ، وثيابنا معقولة ، وشقتنا مريحة .. لكننا سننكشف تمامًا لو مرض أحدنا ، أو انهارت البناية وصار علينا أن نجد بناية أخرى ..

لأسباب كهذه ؛ لم تكن لى علاقات عاطفية فى الكلية . أولاً أنا لم أعد أؤمن بالزيجات الناجحة .. كم تبلغ نسبة المقامرة فى أن تأتى بشخصين ناضجين وتضعهما فى بيت واحد وتتوقع أن ينسجما ؟.. هذا الاحتمال عال جدًا لو كان أحدهما كلبًا أو سمكة زينة أو دجاجة ، لكن بالنسبة إلى البشر ، الاحتمال واهٍ جدًا .. آسف ..

ثانيًا : كنت أعرف أن أمامى طريقًا طويلاً إلى أن تكون عندى شقتى وإمكانات الزواج ، خاصة أن أبى لم يدخر مليمًا ...

ذات ليلة جلست أختى فى الشرفة ، ترمق الشارع وأمامها كوب شاى على السور ..

وقفت جوارها .. إننا نسكن فى بيت جميل وواسع عزيز فى الدقى . بيت من البيوت التى تسمح لك بأن تجلس فى شرفة وتكون عاليًا ، ترمق الزحام والناس من بعيد ... بيت خلق طبعًا كى يشتريه أحدهم ويدفع لنا (خلو رجل) ثم يهدمه ليبنى مكانه برجًا قبيحًا ..

كانت أختى شاردة الذهن تمامًا ؛ فاحتاجت إلى ربع ساعة حتى تدرك أننى هناك ..

(منى) أيضًا ليست (سعاد حسنى) ، لكن وجهها مريح ، من الطراز الذى تحب أن تنظر إليه .. وقد قالت لى وهى تنهى كوب الشاى :

ـ « عندما أكبر لا أريد أن أتزوج !.. »

ـ « أنا مثلك .. لكن الأمر لن يكون سهلاً معك .. سوف يشخط فيك أبى ويزوجك خلال عامين .. بينما أنـا رجل .. سيكون من حقى أن أنشغل بتكوين نفسى ربما حتى سن الأربعين .. »

ثم تذكرت فسألتها :

ـ « ما السبب فيما تقولين ؟.. »

ـ « أعتقد أنه من الصعب أن يشعر المتزوجان بالسعادة .. »

كانت تفكر فيما أفكر فيه بالضبط ، فقلت :

ـ « ربما هناك بيوت أخرى ينعم فيها الآباء بالسعادة .. »

ـ « لا أعتقد .. هم جميعًا يمثلون .. كل الناس تعتقد أن أبى وأمى عصفوران فى عش ... »

ثم أضافت وهى تنهض :

ـ « أعتقد أن حياة المرء وحيدًا لا بأس بها ... فى هذه البناية رجلان يعيشان وحيدين ، وهما سعيدان حقًا .. »

ـ « يقول الأستاذ زكريا : إنهما مخبولان .. لا ينامان الليل ، وغريبا الأطوار .. »

ـ « ربما هو الحقد على راحة بالهما .. إن الفنان الأسمر النحيل مريض .. مريض جدًا لو أردت رأيى .. هذا يفسر غرابته .. أما الطبيب النحيل الأصلع فلا يكاد يستقر فى مصر .. »

ـ « الفنـان اسمه (عزت) وقد عـاد من الخـارج مؤخرًا .. الطبيب اسمه (رفعت) .. هناك إشاعات عن رفعت هذا .. يقال : إنه خبير روحانى أو شىء من هذا القبيل ... »

ـ « صديقتى تقول : إنه عالم محترم فى الماورائيات .. يدرسها ولا يمارسها .. »

ـ « الفارق بين من يدرس هذه الأمور ومن يمارسها واه فى مصر علـى كـل حـال .. كلهـم (مخـاوى) بالنسبة للمصـرى .. ممسوس بشكل أو آخر .. »

ـ « إن الخلط بين أستاذ العقاقير الذى يدرس المخدرات ، وبين تاجر المخدرات نفسه ، خطأ فادح .. »

ـ « الأسوأ أن يكون أستاذ العقاقير هذا غير متزوج !!.. »

- 2 -

توفيت أمى كما تعلم يوم شم النسيم بالضبط ..

هذا يوم يصعب أن ينساه المرء ..

لقد بدأ اليوم فى ساعة مبكرة ، عندما أيقظنا أبى وراح يعد البصل والفسيخ ، وكل هذه الطقوس التى يحرص عليها ..

كنت قد ضقت ذرعًا بهذه النزهات التى لا داعى لها ، وشعرت بأننى لم أعد طفلاً يشتهى أن يركب دراجته وسط الحقول أو يصطاد السمك ، لكن أبى كان حريصًا على هذه العادة بشكل شبه دينى ؛ مما يدل على أن جيناته الفرعونية أقوى منى ..

لو أراد أن يسعدنى بحق ، فليتركنى أنعم بالنوم حتى الظهر .. هذا يوم إجازة .. لا كلية ولا محاضرات ولا مواصلات ..

هكذا تحركنا فى تلك الساعة المبكرة وسط زحام هؤلاء الذين لا يريدون أن ينعموا بالنوم .. دعك من أننى و(منى) كنا نعرف يقينًا أننا لا نعيش فى أسرة سعيدة ؛ لهذا بدا لنا هذا نوعًا سخيفًا مملاً من التظاهر بالسعادة . عندما تكون سعيدًا لا يضيرك أن تقضى عيد ميلادك فى مقبرة أو خراب ينعق فيه البوم ..

ركبنا سيارة استأجرها أبى إلى القناطر ، حيث كان زحام مرعب من هؤلاء الذين يتظاهرن بأنهم سعداء ، وهم ليسوا كذلك ..

التقطت للأسرة بعض الصور ..

مباراة بكرة المضرب بين أبى ومنى ... إلخ .. كل تلك الطقوس السنوية . إن لدى درجًا مليئًا بالصور لأبى وهو يلعب كرة المضرب مع منى .. لدىَّ صور لها وقد تعلمت المشى لتوها .. صور بالضفيرة ، وصور لها فى سن المراهقة .. فما جدوى المزيد منها ؟!

ثم افترشنا العشب وبدأت طقوس أكل الفسيخ .. اللحظة التى يعتبرها أبى أهم لحظات اليوم ، وأنا بطبعى لست مولعًا بهذا السمك كريه الرائحة .. التهام الجثث المتعفنة ليس مما يروق لى ، ومن الغريب أنهم يعتبرون هذا دليلاً على شذوذ طباعى ..

مر بنا ذلك الرجل الأصلع الخمسينى البدين .. حسن المظهر برغم هذا ..

نظر لنا فى دهشة فلم أر شيئًا غريبًا .. أبى يقابل عينات من هذا الرجل طوال الوقت ، ولو لم نكن نعرفه فهو يعرفنا .. أحيانًا أعتقد أنه يعرف أناسًا يشبهوننا ونحن نعرف رجلاً أصلع يشبهه ..

لكن عينيه اتسعتا وهتف عندما رآنا :

ـ « حقًا هو عالم صغير !.. »

وصافح معصميهما وهما منهمكان فى الأكل ، بطريقة المصارعة التى ترغمهما على عدم النهوض .. برغم أن مجيئه أحدث بالطبع حالة غير عادية من الارتباك ..

ـ « تفضل .. »

ـ « سبقتكما .. »

ثم نظر لى ومنى فى اهتمام ، وقال :

ـ « هذان هما الذرية إذن .. لقد كبرا .. »

ولاحظت أن أبى لا يبدو ودودًا على الإطلاق .. إنها تلك العلامات المنذرة بقرب الانفجار .. الوريد فى جبهته ينبض كما هى العادة .. ولونه يحمر ببطء شديد . قالت أمى تفسر الموقف :

ـ « د . (مصطفى) .. قريبى ... »

قال الرجل مفسرًا المزيد :

ـ « كنت فى الخارج لفترة طويلة .. من الغريب أن يلتقى الأقارب فى القناطر .. لكن يبدو أن هذا هو ما يحدث هنا.. »

ووقف للحظة ينظر إلينا وإلى أبى ، ولكن أبى ظل منهمكًا فيما يأكل .. وقضم قضمة شرسة من البصلة التى يحملها ، وراح يزدردها ؛ من ثم بدأ الرجل يشعر أخيرًا أنه أنهى مهمته وأن انصرافه صار واجبًا ..

ـ « تشرفنا .. سوف نلتقى ثانية .. »

وهز رأسه من جديد ، وابتعد وهو يركض تقريبًا .. لم يكن أكثر اللقاءات مع الأقارب حرارة ، وقد شعرنا بشكل ما أن هناك خلافًا قديمًا بين هذا الرجل وأبى .. كل رجل يحمل عدة خلافات مع أهل زوجته على كل حال ، ما لم يكن ملاكًا وهم ملائكة ..

المهم أن اليوم انتهى بمعجزة ما ، وسرعان ما كانت السيارة تعود بنا إلى البيت .. أعرف باقى السيناريو .. سوف ننام كالموتى بقية اليوم ، ومن حين لآخر يصحو أحدنا ليشكو من (النار المشتعلة بداخله) ، ويجرع بعض المياه الغازية ، ثم يحاول النوم من جديد .. أنا لم أكن قد تذوقت الفسيخ ، لكنى التهمت كمية من البيض الملون تكفى لجعلى أستمتع بنصيب وافر من تلك البراكين التى تنفجر وتفيض فى معدتك ..

أذكر أننى صحوت عصرًا لأسمع صوت مشادة من غرفة أبوىَّ .. كانا يتصايحان كالعادة .. أبى بطريقته العصبية التى توشك على تفجير شرايين رأسه ، وأمى بطريقتها الهادئة ..

سمعت مقاطع مثل :

ـ « لماذا يظهر الآن ؟! »

ـ « هذا ليس ذنبى .. »

- « وهو وقح كذلك .. »

- « لم يفعل شيئًا سوى أن حيّانا .. »

كنت أعرف أننى لو قرعت بابهما لوجدتهما فى أسعد حال كالعادة ؛ لهذا وضعت الوسادة على رأسى وحاولت أن أعود للنوم ..

لابد أن الكارثة حدثت فى الثامنة مساء ..

كنت ومنى جالسَين نشاهد التلفزيون بينما والدانا ما زالا نائمين . سمعنا ضجة غير عادية من غرفتهما . هذه المرة لم تكن هناك مشاجرة ، بل هناك من يجرى .. يسقط أشياء ..

جرينا إلى هناك لنجد أن أمى قد توفيت...

استعادة هذه اللحظات قاسيةٌ جدًا ؛ لذا لن أطيل الوصف ؛ فهو غير ممتع بحال .

لقد توفيت أثناء النوم ، وأصيب أبى بهلع مجنون جعله لا يعرف ما يقوم به .. راح يركض للباب ثم يعود .. يرفع سماعة الهاتف ثم يضعها ..

هتفت منى كالملسوعة :

- « هناك ذلك الطبيب .. ذلك الطبيب .. »

عرفت على الفور ما تقصده ، وجريت على الدَّرَج كالمجنون ، ورحت أقرع بابه مرارًا ...

أخيرًا انفتح الباب وظهر لى .. بالمنامة .. انتثر الشعر الباقى على جانبى رأسه .. نحيلاً كعود الخِلة ، وكان يحلق ذقنه كما هو واضح من الصابون الذى غطى نصف وجهه . لكنه بدا لى وقتها رائع الجمال ..

قلت له :

- « م .. مم .. ف .. ف .. ا .. ب ... ك .. ك .. »

يبدو أننى كنت بليغًا جدًا ؛ لأنه هُرع يحضر جهاز الضغط والسماعة ، ولحق بى بالمنامة والخُفَّين ...

عندما دخلنا الشقة كان يلهث ويكافح من أجل الهواء ، حتى أدركت أنه بحاجة إلى طبيب هو الآخر .. إن لياقته معدومة أو هو يموت الآن ..

فى غرفة النوم ، التى تحولت إلى زنزانة مبطنة فى مصحة أمراض عقلية ، تأمل الجثة الراقدة على الفراش ، والتى كنت أتوقع أن يخرج عصا الساحر ليحركها ويعيدها للحياة .. أليس طبيبًا ؟

قاس الضغط مرتين وأصغى للقلب .. ثم تساءل عما حدث بالضبط ..

قال أبى وهو يرتجف :

ـ « لم تصح من النوم .. هذا كل شىء .. »

ـ « هل من شىء أكلته أو شربته ؟.. »

ـ « الفسيخ .. الكثير منه .. قبل هذا كانت فى خير حال .. »

فكر بعمق للحظة ...

فيما بعد قال لى :

ـ « هناك نوع من التسمم ينتج من الفسيخ والمعلبات الفاسدة ، ويدعى (البوتيولزم Botulism) ، ولو ترجمناه للعربية لكان معناه (السجقية) .. لكنه لا يقتل بهذه السرعة ولا يبدو كهذا .. ..

لكنه بالطبع لم يجد وقتًا ليقول هذا كله .. لقد حك رأسه الأصلع وقال :

ـ « لا أجد علامات تدل على نوبة قلبية .. ولكن أوان البحث عنها قد فات على كل حال .. »

وبحث فى جيب منامته عن شىء .. علبة ما .. أخرجها وأخذ منها قرصًا .. هذا الرجل سيموت الآن وسوف يترك لنا جثتين .. ليته يرحل بسرعة !..

لم يجد الكثير مما يعمله ؛ لأنها كانت قد توفيت فعلاً .. فقط كانت مشكلته كيف يخبرنا بهذا ببطء ....

كما قلت : لن أطيل عليك .. فقط أقول : إننى تلقيت أول ضربة قاسية فى حياتى ، وتعلمت تلك الألعاب الخبيثة التى تلعبها الأيام من حين لآخر ... الموت المفاجئ !.. حدثنى أنا عن الموت المفاجئ !.. ..

عرفت وقتها أن الحياة فى بيت يتشاجر فيه الأبوان كثيرًا ، خير من بيت لا يوجد فيه سوى أب واحد ..

وعرفت أن بيتنا سيكون هادئًا جدًا .. هادئًا أكثر من اللازم ...

* * *

- 3 -

فى الأيام الكئيبة التى تلت ذلك ، جاءت عمتى لتقيم عندنا ..

عمتى غير متزوجة ، وفى الخمسين من عمرها ، وقد بدا للجميع أن هذا هو الحل المعقول .. سوف تُعنَى بنا ونُعْنَى بها .. تفعل الأشياء التى لا تستطيع عملها سوى امرأة ، ونقدم لها نحن أسرة تصير فردًا فيها .. بالطبع كانت إقامتها معنا مستحيلة عندما كانت أمى حية ..

كانت عمتى رقيقة لطيفة الحاشية ، تختلف كثيرًا عن أبى ، وإن كانت طيبة مثله .. أبى طيب القلب لكنه عصبى فعلا ، وهذا ما لم يفهمه كثيرون.

ولم تفهمه (منى) أختى ..

فى الحقيقة كانت (منى) تزداد عصبية ، وازدادت صمتًا وغموضًا ..

لاحظت هذا وقلت لنفسى : إن فقدان الأم فى فترة المراهقة ليس تجربة هينة على الإطلاق .. كانت منى قد صارت شخصية سميجة بحق ..

صارت صموتًا .. عندما يكلمها أحد لا تبدى أى انفعال .. تصغى ولا تعلق.

أما عندما يكلمها أبى فهى لا تبدى على الإطلاق أية علامة على أنها تسمعه .. وقد أصدر لها أمرًا ذات مرة فلم يَبْدُ أنها سمعت حرفًا ..

رأيت وجهه يحتقن ، والوريد إياه ينتفخ ، فهرعت أنفذ ما طلبه ، رحمة به وبها ..

قل لها دعابة .. أية دعابة .. احك عن أظرف شىء رأيته أو سمعته فى حياتك .. سوف تنظر إليك وعلى شفتيها شبح ابتسامة ، ثم تغمغم :

- « أم م م ... »

وهكذا تدرك أنك وغد سَمج وتكره نفسك للأبد ..

أما الأغرب فهو أنها تغلق غرفتها بإحكام ليلاً .. لم تكن معتادة هذا .. وقد قلت لنفسى : إنها قد كبرت وصارت الخصوصية من حقها ، لكن لماذا قررت أن تكبر فجأة خلال شهرين ؟!

فيما مضى كانت غرفتها مغلقة الباب لكن من دون مزلاج ، وكنت أقرع الباب عدة مرات قبل أن أتلقى الإذن بالدخول .. أمى

فقط كانت الوحيدة المسموح لها بفتح الباب بلا استئذان . وكانت أمى تؤمن بأن باب غرفة المراهق يجب ألا يغلق من الداخل أبدًا .. كانت تتوقع أن تدخل ذات يوم لتجد (منى) تضع الهاتف على أذنها وتكلم حبيبها فى دلال ، كما تفعل (ماجدة) فى الأفلام العربية القديمة .. أما أنا ، فبالطبع ستدخل لتجدنى أنزع المحقن المليء بالهيروين من ذراعى .. لهذا كان عنصر المفاجأة ضروريًا .. هذا سلاح لا يجب التخلى عنه ..

الأغرب هنا أن (منى) تتحفظ مع عمتى ذاتها ، فلا تسمح لها بلمسها أو دخول حجرتها أبدًا ..

أما عن أبى فلم يكن على ما يرام بدوره ..

بدأت النوبة الأولى فى ليلة من شهر مايو ..

كنا فى غرفتينا ، وكان هو أمام التلفزيون ، وفجأة سمعته يصرخ بقوة ..

هرعت إلى غرفة الجلوس متوقعًا كارثة .. لحسن الحظ لم أجد جثثًا ، لكنه كان واقفًا فى وسط الغرفة .. العرق يحتشد على جبينه ، وعيناه متسعتان ، وهو ينظر حوله ..

ـ « ماذا هنالك ؟!.. »

ـ « هناك مَن جاء من خلف المقعد واقترب منّى .. من ناحية اليمين .. عندما شعرت به استدرت وصرخت فلم أجده ... »

غريب هذا ..

هكذا انطلقت أبحث فى أرجاء الغرفة وخلف المقاعد .. لاشىء .. قمت بالبحث خلف الستائر .. لا شىء ..

لا يمكن أن يغادر الشىء عن طريق الصالة ؛ لأن أختى كانت هناك فى هذه اللحظة ..

قلت له وأنا أربت على كتفه :

ـ « لا يوجد شىء .. فلتطمئن .. »

انتزع يدى من على كتفه فى غلظة ، وقال :

ـ « هل تعنى أننى أخرف ؟!.. »

ـ « بل أعنى أنه لا يوجد أحد !.. »

لماذا لا يقبل الناس فكرة الهلاوس ؟.. يعتبرونها إهانة .. من الممكن أن تحتفظ بصفاء عقلك وذكائك ، لكن حواسك تخدعك .. هذه ليست إهانة ..

عاد أبى يكرر فى عصبية :

ـ « أنا لا أهذى .. هذا الشىء جاء من اليمين .. رأيته بوضوح تام .. »

ـ « هل بدا كإنسان ؟.. »

ـ « ربما .. »

قمت بإعادة التفتيش ؛ من أجل إرضائه لا أكثر ، ثم هززت رأسى ..

ـ « هذه الخدعة البصرية تحدث كثيرًا لمن يلبسون العوينات ويشاهدون التلفزيون فى الظلمة .. يرون ظلالاً تتحرك على ركن العين .. »

نظر لى وابتسم فى شفقة لسبب لم أفهمه ..

بالفعل .. أنا عبقرى .. أبى لا يلبس عويناته ، والغرفة مضاءة كأفضل ما يكون !

* * *

-4-

النوبة الثانية حدثت بعد أسبوع ، عندما أخلد إلى النوم ..

منذ توفيت أمى كف أبى عن النوم فى غرفتهما المشتركة ، وهى مسألة نفسية أفهمها طبعًا .. قمنا بإعادة ترتيب الغرفة واتخذتها عمتى غرفة لها ، بينما أخذ أبى غرفة صغيرة فى نهاية الممر جوار المطبخ . هناك ستار كثيف يفصل الممر عن الصالة .. وللغرفة مزية أخرى هى قربها من الحمام ، وهو شىء محبب لمن يشكو تضخم البروستاتا ..

دوى صراخ أبى .. طبعًا كان لابد من لحظة يخترق فيها جدار نومى ؛ من ثم نهضت وقلبى يتواثب ، وجريت إلى الصالة .. فقط لتظلم الدنيا لربع ثانية بسبب نهوضى المفاجئ ..

اصطدمت بالستار فمزقته .. ثم اندفعت نحو الردهة ..

هناك كان أبى يجلس على حافة الفراش يلهث فى جشع ، العرق يغمر جبينه بالكامل ..

وعندما استطاع الكلام كانت عمتى و(منى) قد لحقتا بنا .. قال لى :

ـ « هــذه المــرة كــان يقــف أمامى ... عينان حمراوان تمامًا تنظران إلىَّ !.. يبدو كإنسان .. لكنه ليس كذلك .. كتلة سواد هائلة .. رأيته .. رأيته .. »

ـ « وهل كانت الغرفة مظلمة ؟.. »

قال دون حذر :

ـ « أنا أبقيها مضاءة .. »

وهذا اعتراف منه بأنه يخاف النوم فى الظلمة ... لا ألومه .. لا ألومه .. من كان بلا خطيئة فليرجمه بحجر ، ومن كان شجاعًا منكم فليمر بما مر به ..

عمتى قدمت له الماء المثلج بالسكر ، وأصرت علـى أن يفرغ مثانته فى الحمام .. هو يكرر فى عصبية أنه لا يريد ، وهى مصرة كالجحيم لأن هذه هى الطريقة المثلى للقضاء على (الخضة) . عمتى لا تعرف أن هذه بالفعل هى الطريقة المثلى لإعادة تشغيل الجهاز العصبى (الجار سبمثاوى) ؛ من ثم يخف عمل الجهاز السمبثاوى .. أى يقل أثر التوتر والرعب على جسده ..

كنت أنا أفتش كل شىء كالعادة .. أفتح خزانة الثياب .. أفتش تحت الفراش .. دخلت المطبخ وبحثت ..

بالطبع لا يملك اللصوص قدرات خارقة للعادة ، ولا يتبخرون .. إنهم مثلنا .. يخرجون من الأبواب والنوافذ ، ويحدثون صوت خطوات .. هم فقط يفعلون هذا أسرع منا ..

فى طفولتى كنت أسمع لفظة (حرامى) فـأتخيل كيانًا مرعبًا غامضًا .. وعندما سمعت أن جارتنا (أمسكت بحرامى فى المسقط) ، تخيلت ذلك الكائن المخيف أسود مشعرًا كأنه فأر كبير ، وقد ربطته جارتنا بالسلاسل ، وبالطبع رفضت أن ألقى نظرة عليه .. كنت أعرف أنه سيحطم السلاسل ويمزق الجميع ويهرب ..

لم أجد شيئًا .. على أبى أن يقتنع بأنه يرى أوهامًا ..

عاد من الحمام ، وللمرة الأولى نظر إلىَّ طويلاً ، ثم قال بصوت خفيض خائف خجول :

ـ « هل يضايقك أن تنام معى ؟!.. »

بدا لى هذا غريبًا .. أنا الذى كان من حقه أن يطلب شيئًا كهذا فى طفولتى ..

لكنى لم أستطع الرفض ؛ لذا ذهبت لحجرتى وحملت وسادتى .. ولا داعى للغطاء طبعًا لأن الطقس حار ..

فى الممر قابلت (منى) التى نظرت إلىَّ طويلاً ، ثم ابتسمت فى توحش وهمست :

ـ « دعه يتعذب قليلاً !.. »

* * *

لم أستطع فهم ما أرادت قوله ، لكنى على كل حال افترشت الأرض وتوسلت لأبى كى يغلق النور ... لو كنت سأنام على الأرض بقية الليل فليسمح لى بمتعة الظلام على الأقل ..

ساد الظلام فسمعته يقرأ المعوذتين وآية الكرسى ، ثم قال لى :

ـ « لم تجد شيئًا بالتأكيد ؟.. »

ـ « لا يوجد شىء يا أبى سواى .. »

ـ « هذا البيت مسكون أو إننى بدأت أجن .. »

ـ « أنت مرهق فقط يا أبى .. هذا كل شىء .. »

ثمة شىء يحطم الأعصاب فى ضعفه هذا .. أبى عصبى .. لا يسامح الضعف البشرى ولا يقبل الزلات من أى نوع .. فليبق كذلك !.. أما هذا الوهن فيلتهم روحى ويشعرنى بقنوط شديد . عندما يصدر الأسد أنينًا خافتًا كقط جريح .. فهذا يمزق قلبك فعلاً ....

الأسد يجب أن يزأر .. يزأر بقوة وشراسة ..

الأسد يجب أن يفترسنا !!

بدأت أغوص فى حالة اللا يقظة اللا نوم إياها ، ويبدو أننى رأيت حلمًا قصيرًا أو حلمين من تلك الأحلام القصيرة التى تسبق العرض الرئيس .. تلك الأحلام التى تشبه الجريدة السينمائية وأفلام ميكى ماوس .. سوف يبدأ الفيلم الكبير حالاً ، ولسوف يكون فيلمًا ممتعًا أواجه أنا فيه عصابات قطاع الطرق فى الصحراء ، ثم أفوز بحب (ميرفت أمين) .. السبب هو أننى رأيتها فى فيلم منذ يوم وبدت لى فاتـ ....

ـ « رامى .. »

ـ « هه ؟.. »

انتهت العروض القصيرة .. وعدت أدرك أننى على الأرض وأبى على الفراش على بعد متر .. كان يقول :

ـ « لو كان هذا الظل يمثل أمك رحمها الله .. ألا يجب أن يشبهها ؟.. »

ـ « بلى .. هذا ما أعتقده .. »

ساد الصمت .. ومن جديد أدركت أنه يقول لنفسه : إنه لا يمثلها .. إذن .. فليطمئن ...

ومن جديد بدأت العروض القصيرة المرحة قبل الفيلم الكبير .. و ... أوف !!!

لم أدر متى ولا كيف انغرست قدمه الغليظة الحافية فى بطنى ؛ فأطلقت صرخة الاحتضار ، وسمعته يقول فى الظلام :

ـ « آسف .. لم أرك !.. فقط أردت أن أشرب !!.. »

قلت وأنا أبحث فى جدار بطنى عن أحشاء خرجت :

ـ « لماذا لم تقل لى بالله عليك ؟!.. لماذا لم تطلب هذا منى بوضوح ؟.. »

* * *

- 5 -

فى الصباح كانت كل عظمة فى جسدى مهشمة ، لكن جدار بطنى كان موشكًا على التمزق .. برغم هذا وجدت من القوة ما يسمح لى بأن اسأل (منى) ونحن نتناول طعام الإفطار على الواقف فى المطبخ كعادتنا :

ـ « ما كل هذه السادية ؟.. لقد قلت أمس : إن الرجل يستحق ، أو شيئًا من هذا القبيل .. ما الذى فعله بالضبط ؟.. »

كانت تلوك لقمةً من الخبز بالجبن .. تلوكها فى شىء من التوحش والعصبية . فلما سمعت ما قلت نظرت إلىّ ولم تعلق .. عدت أقول فى إلحاح :

ـ « ليس ذنبه أنه تشاجر معها يوم وفاتها .. هذه مسألة أعمار لا يعرفها إلا الله ..

هنا نظرت إلىّ بعينين ناريتين .. (منى) لها عينان فاتحتا اللون تصيران ذهبيتين فى الشمس ، وعندما كنت أغضبها فى طفولتى ، بأن أكسر لها لعبة أو أمزق صورة تحبها ، كانت تنظر إلىّ تلك النظرة التى تذكرنى بالنمر الغاضب ، وقالت :

ـ « أنت تعرف جيدًا .. »

ـ « أعرف أى شىء ؟.. »

ـ « لقد عاد الإحساس بالذنب يطارده .. عندما ينجو القاتل من الشرطة فإن ضميره يستمر فى المطاردة !.. »

قلت فى غباء ، وقد بدأ الطعام يتساقط من جانبى فمى :

ـ « هل جننت ؟!.. »

ـ « أنت المجنون لو لم تكن قد فهمت .. هذا الرجل قتل أمى !.. »

* * *

كان الأمر يفوق تصورى ..

يفوق أية مشاكل عائلية تكون قد خطرت لك ..

هكذا اضطررت إلى أن آخذها خارج البيت تمامًا .. أخذتها إلى مكان هادئ بعيد عن الأعين ، وعدت أسألها عن هذا الهراء الذى قالته.

قالت لى فى عصبية :

ـ « أنت تعرف .. هذا الدكتور (مصطفى) الذى قابلناه فى القناطر .. كل شىء يقول إنه كان معجبًا بأمى أو تقدم لها فعلاً .. لم يتحمل أبى فكرة ظهوره المفاجئ هناك ، وأنت تعرف أنه صار شديد العصبية .. »

ـ « أنت مجنونة !.. »

ـ « ربما .. وعندما عدنا إلى الدار دارت مشادة قوية بين أبى وأمى .. كنا نائمين كالمومياوات ، بينما احتدم الموقف فحدث شىء ما .. ربما كتم أنفاسها بالوسادة .. ربما دفع رأسها فارتطم بحاجز الفراش .. ربما أى شىء ... ما أعرفه هو أن امرأة سليمة الجسد ماتت فجأة .. »

ـ « لا تعنى كل مشاجرة أن .... »

ـ « وربما لم يمسها ، لكن المشاجرة أحرقت جهازها العصبى وأرهقت قلبها .. وها هو ذا الدليل .. إن شبحها يطارده وينغص حياته .. إنه عاجز عن الحياة بشكل طبيعى .. أنا قرأت قصة (ماكبث) فى المدرسة ، ورأيت كيف أن شبح الملك العجوز ظل يطارد قاتليه .. »

قلت وأنا أبلل شفتى بلسانى :

ـ « منى .. لقد كان هناك طبيب .. بل طبيبان .. لم يريا ما يريب .... »

ـ « الطبيب الأول أستاذ كبير .. ما دام لم ير شيئًا مريبًا فقد افترض الثانى أنه لا داعى للتدقيق .. ونحن لم نتهم أحدًا .. لو كان رفعت هذا أحمق .... »

ـ « من الصعب أن تخنقى أحدًا من دون آثار .. هذه أشياء يعرفها الأطباء .. »

ـ « لا أعتقد أنه كان يملك الوقت الكافى للتدقيق .. »

فكرت حينًا ثم قلت لها :

ـ « أنت مصابة بالبارانويا .. »

ـ « وما هى ؟.. »

فلا تنس أنها طالبة فى الثانوى .. تحتاج إلى الكثير جدًا حتى تصير حكيمة عارفة بكل شىء مثلى ، أنا الذى أكبرها بأربعة أعوام .. قلت لها :

ـ « جنون الاضطهاد .. الشك فى الآخرين .. »

ـ « ربما .. لكنك تحتاج إلى ما هو أكثر من الكلمات كى تقنعنى ببراءة أبى .. »

ـ « وماذا تنوين عمله ؟.. »

ـ « لا شىء .. ليس فى يدى شىء ولا أستطيع عمل شىء ، لكن ثق بأننى سأتزوج أول من يطلب يدى ؛ لأفر من هذا البيت .. وحتى يأتى ذلك الحين لن أسمح لأبى بأن يلمس يدى .. إننى أتوقع أن يجىء دورى فى الخنق .. »

كان كلامها عاصفة اقتلعت الكثير من سلامى النفسى ..

لكنى بالطبع لم أصدق حرفًا مما تقول .. ولست مستعدًا للشك فى ذلك الأرمل التعس الذى هو أبى ، خاصة وأنا تحت سقف بيته ، آكل وأشرب وألبس من ماله ..

إن فكرة الأب غالبة مقدسة .. الأب معنى عملاق رهيب ، ولا يمكن أن نسمح له بأن يتلوث بهذا الهراء الصبيانى ..

نظرت إليها فى عينيها وقلت :

ـ « اسمعى .. أنت تحبيننى .. أليس كذلك ؟.. »

بدت الرقة فى عينيها لأول مرة ، وقالت :

ـ « بلى .. »

ـ « نحن أول أخوين عرفتهما يحبان بعضهما فعلاً .. كل أخ وأخت أعرفهما بينهما ما صنع الحداد .. يبدو أن هناك لعنة اسمها (لعنة الأخت الصغرى) حيث تكون دائمًا سميجة مزعجة واشية .. والأدهى أن الأبوين يصدقان ما تقول بلا مناقشة .. »

ـ « لكننا نختلف .. أنا أختلف .. »

ـ « إذن أريد أن تقابلى معى د. (رفعت) جارنا ، وتحكى له كل هذا الهراء الذى قلتِه .. »

ـ « وما جدوى ذلك ؟.. »

ـ « إما أن يصدقك ، وهذا يعنى ثورة تجتاح حياتنا ، ولن يعود شىء كما كان .. وإما أن يثبت لك أنك حمقاء ، وهذا يريحك ويريحنى .. أن تكون أختى معتوهة لأفضل بمراحل من أن يكون أبى قاتلاً ...

ـ « صدقنى أنا أدعو الله أن أكون معتوهة .. »

ـ « جميل جدًا .. سأعتبر هذه موافقة على لقاء هذا الطبيب النحيل .. »

* * *

- 6 -

عندما فتح د. (رفعت) الباب ، بدا على وجهه تعبير من الرعب وعدم التصديق ، حتى إننى تساءلت عما إذا كنا قد جئنا وهو يقوم بإعداد القنبلة الحارقة الثالثة ، أو تعبئة الكيلوجرام الرابع من الهيروين ، أو طباعة المليون الثانى من العملة المزيفة ... نفس التعبير الذى يبدو على وجوه الجواسيس فى السينما ، عندما يفتحون الباب ليجدوا ضباط المخابرات واقفين ..

فيما بعد .. عرفت أنه ليس ودودًا على الإطلاق ، ويمقت الزوار من أعماق قلبه . كل الأوقات عنده غير مناسبة .. كل من يطرق بابه هو آخر شخص يتمنى أن يراه فى تلك اللحظة ...

كان يرتدى ذات المنامة التى زارنا بها من قبل ، ويبدو أنه كان منهمكًا فى الطهى .. لا أعرف نوع الطعام الذى يطهونه فى الثامنة مساء ، لكنه كان يفعلها ..

نظر إلىَّ ونظر إلى (منى) متسائلاً ؛ فطلبت منه أن يسمح لنا ببضع دقائق من وقته .. كان يشعر بأنه خُدع .. لقد انتهت علاقته بنا منذ غادر مجلس العزاء الذى حضره مجاملاً .. فماذا نريد بعد هذا ؟.. وقد نظر إلىَّ متسائلاً بما معناه (هل هو أبوك هذه المرة ؟) فابتسمت بمعنى أنه لا داعى للقلق ..

هكذا دخلنا إلى صالة واسعة قليلة الأثاث .. ليست متسخة تعسة الحال كما يجدر بالعزاب ، لكنها كذلك لا تنم إطلاقًا عن يد امرأة .. هذا رجل يحب النظافة ، لكنه لا يجيد التنظيف ..

هناك تماثيل مخيفة على (البوفيه) ، يبدو أنها أفريقية ، وهناك بعض حزم الثوم معلقة فوق النوافذ .. كل الناس تعلق الثوم في الشرفة ، لكنه يعلقه داخل البيت .. هناك صور فوتوغرافية يستحيل تَبيُن ما فيها ، وهناك لفظة (سينوى) مكتوبة بالعربية بحروف كبيرة على باب غرفة أعتقد أنها غرفة نوم ..

آيات قرآنية معلقة بكثافة غير عادية ، تشعرك بأنها معلقة لمنح نوع من الاطمئنان النفسى وسط هذا الجو الغريب ...

صوت أم كلثوم يدوى من جهاز كاسيت موضوع هناك عند مدخل المطبخ ..

ربما يكون مجنونًا وربما لا ، لكن الأكيد أنه غريب الأطوار ..

جلسنا على مقاعد (أنتريه) عتيق .. بينما ذهب إلى الداخل وعاد بعد لحظة بزجاجتى مياه غازية . طبعًا لم يحضر فتاحة ونسى هذا تمامًا .. هكذا أمسكنا بالزجاجتين غير عالمين ما يجب عمله ..

قلت له على سبيل المرح :

ـ « يبدو أنك كنت تعد الطعام للغد .. »

ـ « بل هو لليوم .. أصحو متأخرًا جدًا كعادتى ؛ لذا يمكنك أن تعتبر هذه هى الظهيرة عندى .. »

ـ « تستعمل الكثير من الثوم .. »

قلتها مستكشفًا ؛ لعله يشرح لى شيئًا عن سبب تعليق الثوم بالداخل ، فقال وهو يجلس :

ـ « هذا لا شىء .. إنهم يأتون من النوافذ وهم مصممون هذه الأيام على ..... لا عليك .. بالمناسبة . أى يوم هذا ؟ .. »

ـ « الثلاثاء .. »

ضرب صلعته وقد تذكر ، وهتف :

ـ « الثلاثاء .. يد (بيزارو) !.. لقد نسيت تمامًا .. أرجو أن تنتهيا من الكلام بسرعة ؛ لأننى سألتهم طعامى وأغادر البيت حتى الصباح .. أنت تفهم هذه الأمور ... »

كنت أنظر إلى (منى) فأراها لا تبعد عينيها لحظة عن الرجل ، فلما بلغت المحادثة هذا الموضع بدا عليها عدم الارتياح تمامًا وكأنها على وشك أن تفر أو تصيح : « فلنذهب !.. هذا الرجل مخبول تمامًا .. كما قالوا وألعن !.. »

لكنى تكلمت قبل أن تفر ، وقلت لأورطها :

ـ « منى .. تحمل بعض الشكوك ، ودعنى أطلب منك يا د. رفعت ، وأنا أعرف أنك رجل شريف ، أن يبقى ما نقوله هنا سرًا .. »

ابتسم ابتسامة لطيفة وقال :

ـ « أنت تجرب الكبار طبعًا .. دائمًا يعدونك بشرفهم أن ما تقول سيظل سرًا ، ثم يخبرون به الجميع .. أليس كذلك ؟... تحكى الموضوع لأمك فتجدها أخبرت أباك .. تحكيه لأبيك فتجده أخبر معلمك .. دائمًا هم ينقضون العهد ؛ لأنهم يعتقدون أنهم يملكون مبررات قوية وحكمة عالية .. والأدهى أنهم لا يكفون عن وعظك عن قيمة العهد وأهمية كتمان السر .. »

هنا تعالت ضحكة عالية من منى .. لقد راقت لها هذه الملاحظة .. هنا قال د. (رفعت) :

ـ « نعم .. دعنى أصارحك بأن الكبار من أسوأ المدَّعين الذين يمكن أن تقابلهم ، ولا يقلل من هذا حقيقة أننى منهم .. لكننى أعدك بأن أكون شريفًا فعلاً كما ترى فىَّ .. »

هكذا .. بعد هذه الملاحظة ، انحل لسان الفتاة قليلاً ، وبدأت تحكى ..

* * *

لما انتهت (منى) من كلامها وضع د. (رفعت) ساقًا نحيلة على ساق أكثر نحولاً .. هذه المنامة توشك إلى التحول إلى سروال قصير (شورت) عندما يجلس .. وقال :

ـ « بصراحة يا منى .. لا أرى أى بصيص من الحقيقة فى هذا الذى تقولين .. الموت خنقًا يترك علامات لا شك فيها ، والأطباء الشرعيون يجدون علامات مهمة مثل الكدمات حول الفم وما إلى ذلك .. من الصعب أن تكتمى نفس إنسان بالوسادة من دون أن يترك أثرًا .. دعك من أن حدسى يقول لى إن أباك كان فى حالة عسيرة فعلاً .. حالة من فَقَد زوجته وليست حالة من يخشى افتضاح أمره... »

نظرت إليه منتظرة تعليقه النهائى ، فقال :

ـ « أنت واهمة على ما أعتقد ... »

قالت فى تحد :

ـ « والكوابيس التى تطارده طوال الوقت ؟.. كل هذه الظلال ؟ »

ابتسم ابتسامة جعلت وجهه يمتلئ بالتجاعيد ويبدو محببًا نوعًا ، وقال :

- « الموت ليس بالضبط تجربة سهلة أو لطيفة .. أن يصحو المرء ليجد جثة فى الفراش جواره ، فهذه تجربة تغير من شخصيته وعقله .. إن رؤية الظلال ليست أسوأ ما يمكن أن يحدث .. ورأيى الخاص أن أباك البائس يعانى ضغوطًا عصبية هائلة ، فلا تضيفى إليها ابنة متشككة .. »

ثم نظر إلى ساعته وهتف فى ذعر :

- « موعد بيزارو !.. أنا آسف .. لكنى مضطر إلى الرحيل .. لايمكن أن أقضى الليلة هنا .. »

ونهض من دون كلمة أخرى ، وكأنه يتوقع أن نبقى حيث نحن فالبيت بيتنا ..

تبادلت مع (منى) نظرة طويلة ..

كلام الرجل غريب ، لكنه منطقى ..

وهكذا أشرت لها كى ننهض .. وألقيت تحيتى عليه بصوت عال ، فرد من داخل غرفة النوم حيث كان يبدل ثيابه بالتأكيد ...

رائحة الشياط هذه .. لا أعرف كيف شممناها بعد ما غادرنا البيت ولم نشمها ونحن بالداخل ...

كدت أقرع الجرس من جديد .. لكن سمعت صوت الرجل يصيح فى سخط .. واضح أنه وجد الطعام المحترق ..

لم يتناول طعامه .. ومن الواضح أنه لن يفعل ..

* * *

- 7 -

يبدو أن (منى) قد هدأت قليلاً بعد هذا اللقاء ..

لم تتكلم عنه .. لكنها صارت أكثر اهتمامًا بأبى ، وقد قدمت له كوب ماء فنظر إليها بذهول ؛ لأنه لم يعتد هذه العناية الخارقة منذ وفاة أمى ..

من الواضح أن حياتنا ستستقر ثانية ، ونرجع أسرة تتظاهر بالسعادة كما كنا ..

من الواضح .. لكن هذا لم يحدث ، ولهذا قصة أحكيها لك الآن ...

كنت مارًا أمام غرفة (منى) عندما سمعتها تناديني .. لم تكن استغاثة ولا مناداة تودد ، إنما هى طريقة المناداة التى يستعملها من يراقب حيوانًا غريبًا ويكره أن يزعجه فيكف عما يفعله ..

كانت واقفة هنالك .. ما بين المكتب الذى تناثرت عليه كتب الكيمياء ومذكرات الدروس ، وبين الجدار .. بعبارة أخرى تقف بين ضوء الأباجورة والجدار ..

لهذا ارتسم ظلها على الجدار عملاقًا ..

كانت تشير إليه فى حذر .. وقالت لى :

ـ « تعال !.. »

دنوت منها ، فأشارت إلى الظل وقالت :

ـ « هذا لا يشبهنى !.. »

ابتسمتُ فى مرح باعتبار هذه لعبة جديدة .. لكنها قالت فى جدية :

ـ « هل ترى خصلة الشعر العالية فى قمة الرأس هذه ؟.. أنا قد قصصتها فى الحمام منذ ساعة .. لاحظ أن الشفتين أكثر بروزًا .. »

لم أنظر إلى الظل ، وقلت لها فى رفق :

ـ « منى .. كفى عن هذا .. إن الفارق بين الوساوس والجنون قد يكون شعرة .. صدقينى .. »

ـ « فقط .. انظر .. »

نظرت إلى الظل فلم أر أى شىء مهم .. مجرد ظل .. دفعتها جانبًا فتحرك الظل معها .. دخلت معها دائرة الضوء فرأيت ظلى يرتسم على الجدار ..

رحت أحرك أناملى بحركات مضحكة وأنا أراقب الظل ، وقلت :

ـ « هل ترين ؟.. أعترف أنه أبرع منّى ، لكنه ظل .. يمكنك أن تستريحى لو أطفأت هذا المصباح ونمت .. إنه منتصف الليل فعلاً .. أعرف أن الامتحانات قريبة .. لكن من الممكن أن تصحى مبكرًا .. »

قالت وهى تعود لدائرة الظل :

ـ « أنا متأكدة من أنه يراقبنى ، وأننى عندما أدرت ظهرى له راح يتحرك حركة مستقلة ، ولربما كان يسخر منى .. »

هنا فاض بى الكيل ، فصحت فى عصبية :

ـ « كُفِّى عن هذا وإلا أخبرت أبى !.. أبى لن يصغى لك ، بل سيجرك جرًا إلى الطبيب النفسى !.. »

ـ « هل ترانى مجنونة فعلاً ؟.. »

ـ « أنت فى الطريق بسرعة تُحسدين عليها .. »

هنا فقط فقدت تماسكها وتهافتت .. جلست مستندة إلى المكتب وراحت تنشج فى حرارة .. غطت وجهها بشعرها وهتفت :

ـ « نعم .. لا أدرى ما حل بى .. أنا جننت فعلاً .. لن أستطيع أن أدخل الامتحان هذا العام !.. »

هذا ما كان ينقصنا !

دنوت منها لأضع يدى على كتفها ، عندما خيل لى للحظة شىء غريب ..

الظل على الجدار لم يكن يبكى ...!

أغمضت عينى وفتحتها فرأيت الموجودات كما عرفتها ، وعادت قوانين الفيزياء تحكم .. من الواضح أن أعصابنا جميعًا مرهقة فعلاً ...

أغلقت الأباجورة اللعينة ، ووقفت جوارها على الضوء الخافت القادم من الصالة ، ووضعت يدى على شعرها الذى يهتز بالبكاء ...

مسكينة هذه الطفلة .. مسكينة !..

لو كنت أخًا جديرًا باسمه لفعلت شيئًا ما ... لكن ما هو بالضبط ؟... ما كان بوسعى فعلته ؛ وهو أن طلبت رأى (رفعت إسماعيل) ... بهذا لم يعد فى متناول يدى سوى كلمات المواساة ، وأن أقنع (منى) بأنها لو رسبت فى الامتحان لتألمت أمى كثير الألم ..

* * *

لم تكن الليلة كأية ليلة ..

عندما اتجهت إلى غرفتى لأنام بعد ما تكلمت كثيرًا جدًا ، رأيت على جدار الممر ظل عمتى وهى تتحرك فى الصالة .. كان شاحبًا باهتًا لأن الضوء منتشر غير حاد ..

قلت بصوت عال :

ـ « مساء الخير يا عمتو .. هل تريدين شيئًا ؟.. »

لم ترد .. أبرزتُ رأسى من الممر وصحت :

ـ « مساء الخير .... »

هنا فوجئت بأن الصالة خالية .. لا يوجد فيها مخلوق . فقط المصباح (النيون) مضاء ، وعلى المنضدة كانت الجريدة وبقايا نسيج صوفى مع إبر الحياكة . بقايا سهرة كانت هنا ...

بالفعل لم تكن عمتى فى الصالة . كانت فى غرفة نومها .. ومن الواضح أنها فيها منذ زمن !

أبى أيضًا دخل غرفته ونام منذ زمن .

إذن .. ما مصدر هذا الظل الذى رأيته ؟!

شعرت بالشعر ينتصب على ساعدى .. بالفعل نحن موشكون على الجنون . الظلال يمكن أن تسبب جنونك فعلاً ، وقد قرأت ذات مرة قصة اسمها (الغرفة الحمراء) لكاتب لا أذكر اسمه(*) ، تحكى عن بطل القصة الذى قرر أن يبيت فى غرفة مسكونة ، مات فيها كثيرون من قبل .. وأشعل عشرات الشموع كى تنير كل ركن من الغرفة . كاد يجن كلما انطفأت شمعة وزحف الظلام على ركن من أركان الغرفة .. ظل يصرخ ويصرخ حتى غاب عن الوعى . وفى الصباح أعلن أن الغرفة مسكونة فعلاً .. مسكونة بالخوف .. مسكونة بالخيالات والذعر ....

(★) هـ . ج . ويلز .

هكذا أغلقت الأنوار ودخلت غرفتى .. وأعتقد أننى سهرت أكثر من اللازم ، أقرأ .. فقط كى لا أضطر إلى غلق النور مبكرًا !

على أننى صحوت فى الصباح لأجد أن أبى قد لحق بأمى ...

* * *

- 8 -

عندما انتهت الأيام التالية ، بدا واضحًا أن (منى) لن تدخل الامتحان هذا العام (وكذلك أنا) ، وأن عمتى ستقيم معنا للأبد ..

لقد توفى أبى أثناء النوم ، فى ظروف لا تختلف كثيرًا عن وفاة أمى ...

لقد صرنا يتيمين بالمعنى الحرفى للكلمة ، ولفترة لم يكن البيت يخلو من الأقارب .. بعضهم رأيناه للمرة الأولى .. مثلاً تكتشف فجأة أن لك أقارب فى السنبلاوين ، وأن فرعًا من الأسرة أقام فى الإسكندرية منذ زمن ... إلخ .. هناك عم (بدوى) الذى يتحدث فى حماس ويتناثر لعابه فى وجهك ، وهو يؤكد أنه ابن عم المرحوم لكنه بمثابة أخيه .

بعد قليل يعود كل واحد لحياته ويخلو البيت ، وأدرك المسئولية الرهيبة الملقاة على عاتقى ، وأحمد الله على أنه ليست لى ثلاث أو أربع أخوات ..

من الغريب أن هذه اللحظات لم تكن بالقسوة التى زارت أسوأ كوابيسى من قبل . أعنى أن ما عشته هو أسوأ شىء فى العالم على قدر علمى ، لكننى تحملته ، بينما لم أتحمل مثلاً كلمة غليظة قالها لى معلم أو صديق ..

قال لى د . (رفعت) :

- « هذا طبيعى .. المصيبة الكبيرة تأتى بصبر كبير معها .. عرفت فتيات تبكى الواحدة منهن عدة أيام لأن والدها وجه لها كلمة عنيفة ، بينما الفتاة ذاتها لم تهتز لها عضلة واحدة عندما عرفت أنها مصابة بسرطان الدم .. »

- « تريد القول بأننا ندخر الدموع للتوافه ؟.. »

- « لا أعنى هذا ولو عنيته لكنت مجنونًا .. أعنى أن اللوعة والهستيريا والصراخ تتعلق بأمور لا تستحق غالبًا .. يعرف الجراحون أن مريض الانسداد المعوى أو تهتك الطحال الذى يشكو ألمًا مروعًا حقيقيًا يظل ساكنًا ينظر إليك ويفضل عدم الكلام كى لايحرك جدار بطنه ، بينما الصراخ وعض الوسائد والركل والتلوى قد يكون معناها أن الألم فيه قدر لا بأس به من الهستيريا .. »

كما هو واضح ، صار د . (رفعت) يزورنا كثيرًا جدًّا ..

هو رجل غير ودود .. يمقت الاجتماعيات حقًّا ؛ لهذا أعرف التضحية التى اضطر إلى أن يقدمها كى يخفف عنا ..

كان يأتى يوميًا تقريبًا بعد استيقاظه من نوم العصر ، وكان أحيانًا يجلب لنا بعض المأكولات ويزعم أنه جاء ليشرب القهوة عندنا لأن نوع البن الخاص بنا يروق له . طبعًا هذا كان

يضايقنى ؛ فلسنا فى ضائقة مالية ، ثم قررت أن أسمح له بعمل ما يريد ؛ لأنى خمنت أن العجوز يشعر بأننا ولداه ..

أعتقد أننا كنا نشكل عقدة ذنب معينة على كاهله ، ولعله كان يشعر طوال الوقت بأن عليه أن يكون حنونًا ، وهذا بالنسبة إليه مستحيل ..

رجل طيب هو .. هذا واضح .. برغم عصبيته الشديدة ، وسرعة ملله ، وشكله الغريب الذى يخيف الأطفال ..

كانت (منى) جالسة فى ركن قاعة الجلوس تنظر إلى الأرض كعادتها .. إن عقدة الذنب تجاه أبى لا تفارقها ، و(رفعت) يذكرها بهذا بقوة ..

كانت تمسك فى يدها مجموعة من الصور ، فسألها رفعت متلطفًا عن محتواها ..

لم ترد ، فقلت أنا :

ـ « إنها صور ذلك اليوم الكريه .. شم النسيم .. النزهة الخلوية التى قمنا بها فى القناطر . لم أحمض الفيلم إلا منذ أسبوع لأننى وجدته فى الكاميرا .. »

بدا القلق على رفعت وقال :

ـ « جميل أن تحتفظ بها ، لكنى لا أجد تفقدها طوال الوقت صحيًا .. ليس الآن .. »

ثم وضع قدح القهوة ، ومد يده يطلب الصور :

ـ « هل تسمح لى ؟.. »

ناولته الصور ، فراح يتأملها حائرًا فيما ينبغى أن يقول .. لو قال : إنها صور رائعة ، لانفجرنا باكين ، ولو قال : إنها رديئة ، فهو قليل الأدب .. ولو ظل صامتًا فهو جلف ....

هكذا راح يتفحص الصور الشمسية وهو يصدر أصواتًا محايدة مثل :

ـ « نم نم .. نم نم .. م .. مم ... نم نم .. »

ثم رأيته يتوقف أمام صورة من الصور .. يدقق فيها .. ثم يعيد النظر فى باقى الصور ..

بدل عوينات القراءة وتأمل الصور ، وقال :

ـ « هناك شىء غريب .. هلا نظرت إلى هذه الصورة معى .. »

نظرت إلى الصورة .. اذكرها جيدًا .. إنها تظهرنا نحن الأربعة ، وكنا قد طلبنا من عابر سبيل أن يلتقطها لنا ونحن نقف حفاة الأقدام على العشب ومن خلفنا جدول صغير . كنا نضحك متظاهرين بالمرح . أما سبب ضحكى فهو تعليق قالته (منى) همسًا عن أن الرجل سيفر بالكاميرا ويتركنا واقفين كالبلهاء ..

قال (رفعت) وهو يدقق فى الصورة جيدًا :

ـ « الأحمق الذى التقط الصورة التقطها عكس الشمس .. لهذا لا تظهر الوجوه جيدًا ... لكن ظلكم يرتمى أمامكم بوضوحٍ .. الآن قل لى يا بنى ، فأنا لم اعد أثق بعينـى البتـة .. هل حقـًا لا يوجد أى ظل أمام والدتك رحمها الله ؟.. »

* * *

- 9 -

كلما أعدنا فحص الصورة والصـور التاليـة التـى تكررت فيها ذات ظروف الإضاءة ، أدركنا أن كلام د . (رفعت) حقيقى ..

لا يوجد ظل من أى نـوع أمام والدتـى ولا خلفها أيضـًا ، فـى الصور التى كانت الشمس أمامها ومائلة ...

غطيت عينى فى صبر وقلت :

ـ « د. (رفعت) .. منذ بدأت هذه القصـة وأنـا أسمع كلامًا غريبًا عن الظلال .. أبى يرى ظلالاً .. (منـى) تتحدث عن ظل لا يشبهها .. أنا أرى ظل عمتى من دون أن تكون عمتى هناك .. والآن تأتى أنت لتقول لى إنه لا يوجد ظل لأمى .. إن الموضوع قد فاق المعقول ، ولا أرى كيف يمكن أن يفيدنا هذا .. »

قالت منى فى رفق :

ـ « صبرًا يا رامى .. لم يقل د . (رفعت) إلا مـا رآه .. فهل كنت تطالبه بأن يظل صامتًا ؟.. »

ـ « نعم .. إن ملاحظة ظلال أمى ليست طريقة ممتازة لتقديم العزاء لنا .. »

هنا نزع د . (رفعت) نظارته وصوب نحـوى عينين متعبتين مرهقتين ، نفاذتين برغم هذا ، وقال :

ـ « ربما كان علىَّ أن أنهض غاضبًا ، لكنى لن أفعل .. دعنى أتكلم بصراحة .. لقد توفى والداك بطريقة غير مفهومة فى فترة قصيرة جدًا .. وعلينا أن نفهم السبب .. يجب أن نبحث عن كل شىء ، وإلا فمن يضمن لى ألا يتكرر الأمر قريبًا جدًا ؟!!.. »

ارتجفت للفكرة ، فقال وهو يرفع قدح القهوة لشفتيه من جديد :

ـ « لو كنت تعتقد أن هذه مصادفة فأنت أحمق .. الأمر تجاوز المصادفة منذ زمن .. »

قلت متحفزًا :

ـ « كم من مرة سمعنا فيها عن رجل توفى بعد موت زوجته مباشرة .. عن زوجة مرضت وماتت بعد وفاة ابنها .. دعك من أن أبى كـان يعانى دستة من الأمراض .. الوفاة هنا مفهومة ومبررة ، ما لم تكن تتهمنى بالقتل طبعًا .. »

قال د . رفعت فى عصبية :

ـ « من تحدث عن مصادفات الموت هنا يا بنى ؟.. أنا أتحدث عن مصادفات كل هذا الكلام عن الظلال ... أنت تعرف ذلك النحات (عزت) الذى يسكن فى الشقة المقابلة لى . أنا أمضى

الليل معه غالبًا عندما لا أجد شيئًا أفعله ، وعندما لا يكون فى الإسكندرية .. لقد تكلم عن ظلال غريبة الأطوار فى مرسمه .. يقسم إنها تتحرك وإن لها سلوكًا غامضًا .. »

ثم اتسعت عيناه أكثر وقال :

ـ « بواب البناية .. إنه ينام أغلب الوقت ، ولا يلاحظ أى شىء على الإطلاق ، فلو أن الجيش البروسى دخل البناية فلن يلاحظ ... لكنه مصر على أنه رأى ظل إنسان يقف فى بئر السلم كأنه ينتظر ، وقد ذهب ليتبين من هو فوجد أنه لا يوجد ظل ولا يوجد إنسان .. قص علىَّ هذه القصة منذ يومين وجعلنى أفكر مليًا .. لقد بدأت أعتقد أن أباك لم يكن يتخيل الظلال التى يراها .. هذا الرجل قد رأى ظلال الموت تزحف نحوه ببطء .. تتربص به .. فلا شك عندى فى أنه توفى بنوبة قلبية .. صحا من نومه ليجد نفسه وحيدًا وثمة ظل يزحف على الجدار المقابل له . نظر إلى باب الغرفة مصدر الضوء الوحيد فلم ير أحدًا .. هنا .. هنا بدأ قلبه يخفق بسرعة غير عادية .. الضربات غير منتظمة .. الـ ... »

كان يتحدث فـى حماسة وانفعال وقد احتقن وجهه ، وفجأة رأيته يتحسس صدره ويرتمى بظهره على الأريكة .. والذعر فى عينيه ..

الأحمق !.. لقد أجاد تمثيل النوبات القلبية لدرجة أنه أصيب بواحدة ..

صاحت منى :

ـ « افعل شيئًا .. إنه سيموت !.. الكل يموت فى هذا البيت اللعين !.. »

راح يلهث طلبًا للهواء ، فنظرت إليه فاتحًا يدى فى غباء .. ماذا أفعل ؟!

راح يسعل بلا توقف ، ومد يده إلى جيبه فأخرج زجاجة من الأقراص ، لكنه طبعًا عاجز عن فتحها .. كل هذه الأدوية اللعينة يتم تثبيت غطاؤها بحيث تحتاج إلى بلدوزر لفتحه ..

هكذا تناولتها منه وفتحتها ودسست فى يده قرصين . وضع أحدهما تحت لسانه وارتمى للخلف وقد احتشد العرق على جبينه ..

مرت لحظات خيل لى فيها أنه مات فعلاً .. وفجأة فتح عينه وواصل الكلام كأنه لم يحدث شىء :

ـ « هل فهمت ؟.. لقد قتل الذعر أباك .. وعلينا أن نعرف ما الذى أصابه بهذا الذعر .. »

قالت منى وهى تتناول كوب الماء المثلج :

ـ « فى الوقت الحالى هناك شخص آخر سيموت ذعرًا .. »

قال فى شىء من الفخر :

ـ « النوبات القلبية أسلوب حياة بالنسبة إلىّ ، حتى إننى لا أفهم شعور الناس الذين لا يصابون بنوبات قلبية .. والآن عندى سؤال لا أتوقع إجابة عنه .. هل فقد أبوكم ظله فى الأيام الأخيرة ؟ »

قالت منى فى حزم :

ـ « لا ! »

ـ « متأكدة ؟ »

ـ « نعم .. كان يمر أمام غرفتى ليلة الوفاة ، ورأيت ظله بوضوح على الجدار .. »

قلت أنا فى عصبية :

ـ « ألاحظ أنك تخلط يا د. رفعت بين اختفاء الظلال ، والظلال الغريبة التى تجول وتثير الرعب .. »

قال فى شىء من التوتر :

ـ « إن لدى نظرية ، لكنى لا أستطيع شرحها ؛ لأنها مخبولة بحق .. والآن يا بنى هل فهمت ؟ »

قلت عاجزًا عن التفكير بشكل صحيح :

ـ « وما المطلوب منى بالضبط ؟ »

ـ « لا شىء !.. فقط أبق عينيك مفتوحتين .. لا تثق بالظلال أكثر من اللازم .. عليك أن تعرف أنك لا تعيش فى ذات البيت الذى تعرفه .. بل تعيش فى.... »

وجفف عرق جبهته وغمغم بلهجة جمدت الدم فى عروقى :

ـ « بيت الظلال الحائرة !.. »

* * *

الجزء الثانى

عندما فقدت موهبتى

يحكيه هانى فهمى

- 1 -

منذ الطفولة ارتبطت حياتى بالظلال بشكل غير معقول ..

كنت أنظر دائمًا إلى الجدران .. أتأمل ما يرسمه الناس عليها بظلالهم ، من لوحات رائعة تتغير كل لحظة ، ولا فضل لهم فيها .. أرى وجوههم وقد ارتسمت عليها بطريقة السيلويت silhouette الشهيرة .. عندها كنت أراهم أجمل . قليل من يعرف أن طريقة السلويت مشتقة من اسم (سلويت) وزير مالية فرنسا الذى هاله ما ينفقه الناس من مال للحصول على لوحات تمثلهم بريشة كبار الرسامين .. هكذا طلب منهم أن يستخدموا هذه الطريقة لأنها أقل تكلفة .. الواقع أنها أجمل كذلك ..

كنت أتأمل الظلال وأقول لنفسى : هذه الشعرة هنا ، وذاك اللغد هناك .. هذا الأنف المعقوف هنا ، وتلك الذقن هناك ...

الظلال !.. كلمنى أنا عن الظلال ..

عندما يقترب الغروب ويستطيل ظل كل إنسان ليتخذ شكلاً سرياليًا غريبًا ممتدًا نحو الشرق .. عندها يتحول العالم إلى أرض يسكنها العماليق الذين يبلغ طول الواحد منهم طول مئذنة ..

ثم الليل !.. مصباح فى نهاية الشارع يبعث ضوءه الشاحب .. ويمشى الناس فيمتد ظلهم نحوك مريعًا طويلاً مخيفا ، كأنه موشك على تمزيقك ..

الظلال !.. حدثنى أنا عن الظلال ..

إنها الحلم الذى منحه الله لنا .. قوانين الفيزياء عندما تقرر أن تبهرك وتريك أنها جميلة مثل باقى القوانين .. ربما أكثر فتنة ...

لا أعرف متى بدأت أصنع ظلالى الخاصة ، وقبل أن أسمع عن فن اسمه (خيال الظل) كنت قد صنعت عشرات الأشكال بأناملى ..

جمهورى الوحيد كان إخوتى الصغار ، عندما كنت أعلق ملاءة على فتحة باب به فرجة تسمح لى بأن أقف فيها ومعى مصباح ساطع ... أحرك أناملى فترى على الملاءة البيضاء كلبًا ينبح أو قطة مذعورة ..

وعندما دخلت الكلية لم أرغب فى أية كلية من تلك التى يرغبون فيها . أردت أن أكون قريبًا من عالم الظلال .. هكذا درست فى معهد السينما .. لكنى لم أعمل قط ..

تخرجت فى المعهد ، ومعى شهادتى ، ومعى قلب (مادلين) الفاتنة زميلتى هناك . لكن كان بون هائل يفصل بينى والزواج منها .. كنت بحاجة إلى وظيفة ثابتة ، وإلى دفعة مالية أولى ..

كان معى صديق مخلص يدعى (سمير) ، وقد كان حالمًا مثلى ، يصبو إلى أفق لا نراه .. لهذا قررنا أن نحقق حلمنا بأى شكل ..

استطعت أن أعمل فى وزارة الثقافة ، وقد وجدت نفسى فى مكتب به موظفون يأكلون الفول بالزيت الحار ويحتفظ كل منهم بليمونة فى جيب بذلته ؛ لذا صممت على أن أفر من هناك .. واستطعت بجهد جهيد أن أنشئ مسرحًا صغيرًا لخيال الظل يتبع وزارة الثقافة ماليًا ، حيث بدأت بعض العروض الناجحة . ثم تعاقد معى أحد مخرجى برامج الأطفال التلفزيونية على تقديم فقرة ثابتة يوميًا .

هكذا وجدت نفسى بحق .. لم أجن مالاً ، لكنى وجدت النافذة التى أتنفس منها ، ومن بين أناملى خرجت حكايات كاملة . الشاطر حسن وست الحسن والجمال .. التنين النائم .. الأسد و(أندروكليس)... إلخ ...

أعتقد أننى كنت بارعًا بحق ، وكنت ، باستعمال أناملى وبعض إضافات بسيطة جدًا مثل منديل أو قطعة معدنية لها شكل التاج ، قادرًا على أن أرسم ظل أية شخصية فى العالم ..

لقد اشتهرت ، والتقت بى أكثر من مذيعة تلفزيونية ، كما جاء كثيرون ليروا ما أقدمه ..

وجاء اليوم الذى صرت فيه قادرًا على الزواج من حبيبة قلبى . لن نكون أثرياء ، لكننا قادران على أن نخدع نفسينا . ما زلنا صغيرى السن ، والغد يحمل الكثير ..

هكذا تمت الخطبة ..

* * *

من ضمن من عرفت فى الوسط الفنى ، كان ذلك الرجل النحيل داكن اللون جدًا ، والذى تشعر بأنه مريض فى المراحل النهائية لمرض عضال ..

كان نحاتًا قاهريًا يدعى (عزت) ، وهو مصر على أن يعتبر نفسه سكندريًا .. قال لى إننى بارع حقًا وإنه يتأمل أناملى بلا توقف ليفهم كيف استطاعت خلق هذه العوالم الساحرة ..

كانت ملامحه مميزة جدًا ؛ لذا ابتسمت وأضأت مصباحًا ووضعت أناملى أمامه ؛ وعلى الفور ارتسمت على الجدار صورة كاريكاتورية له بأنفه الكبير .. صرخ انبهارًا ، وتمنى لو أنه استطاع أن يأخذ هذا الظل معه ..

ـ « أتمنى لو كنت فنان سلويت لأبقى هذه الظلال على الورق للأبد .. »

كان عزت رجلاً بسيطًا طيب القلب .. لا أعرف مرضه ولم أسأل ، لكن أهميته بالنسبة لى تكمن فى أنه من قدمنى لرفعت إسماعيل أو العكس ...

يعود سبب هذا إلى ذلك اليوم الذى دخلت فيه الاستوديو وبدأت أعد العدة للعرض الذى سأقدمه فى برنامج الأطفال ..

تأكدت من سلامة الكشاف ، بينما المذيعة تقرأ خطابات الأطفال التى وصلتها ..

تأكدت من أن الملاءة نظيفة ومشدودة ، ثم وضعت يدى أمام المصباح ، فى الوقت الذى راح أحد المصورين يضبط عدسة الكاميرا على الجهة الأخرى التى سيظهر عليها الظل ...

هنا شعرت بدهشة ..

لا يوجد شىء ..

يداى لا تلقيان ظلاً على الملاءة !

* * *

- 2 -

جربت مرة ومرتين بلا جدوى ..

ماذا حدث وكيف ؟!..

شعرت بأننى موشك على الموت ، وقد دوى صوت المصور يسألنى عما هنالك . لماذا لا أعرض يدى على الملاءة كما طلب ..؟

العرق يتصبب غزيرًا من جبهتى ، ولكنى لم أستطع أن أفسر .. أصابنى الذعر بشدة ، ونهضت مسرعًا خارجًا من الاستوديو وسط نظراتهم المندهشة ..

لحق بى أحدهم على الباب واقتادنى للخارج بعيدًا عن الضوضاء ، وسألنى :

- « ما بك ؟.. »

قلت وأنا أجفف عرقى :

- « لا أعرف .. لست على ما يرام .. لا أعتقد أننى قادر على أداء هذه الفقرة .. »

ورحت أجرى خارجًا من (ماسبيرو) والناس تنظر إلىَّ فى دهشة ..

كنت أجرى فى طريق الكورنيش .. شمس العصر ساطعة ، لكننى لم أجسر لحظة واحدة على النظر إلى قدمىّ لأتبين ما إن كان لى ظل أم لا .

* * *

فى البيت أغلقت الباب على نفسى ..

أخرجت المصباح العملاق الذى أستعمله منذ صباى فى البروفات .. أضأته وأخذت نفسًا عميقًا .. (هانى) يا صاحبى .. هذه الأشياء لا تحدث ... اطمئن .. أنت تخرف أو أنت مجنون .. لا يوجد حل آخر ..

ربما هو كابوس تصحو منه الآن ..

وضعت يدى بين المصباح والجدار .. وهذه المرة كنت أكثر هدوءًا ..

بالفعل لا يوجد ظل .. لا شك فى هذا ..

يمكن بلا فخر أن أقول : إننى (الرجل الذى فقد ظله) .. ولكن كيف ؟!

تشاءمت من الأمر .. ربما كانت هذه من علامات الشفافية الزائدة ؟.. ربما أنا أقترب من الموت؟.. يقولون : إن الذين يدنون من الموت يصيرون شفافين أكثر من اللازم ، ويرون ما لا يراه الآخرون .. ربما أنا صرت شفافًا بالمعنى الحرفى للكلمة ؟

أطفأت معظم الأضواء بحيث لا أرى ظلالاً ، ثم جلست ألتهم غدائى شارد الذهن لا أعى ما آكله.

هل هو مرض ؟.. لو كان مرضًا فلم أسمع عنه من قبل ..

المشكلة هى أن علاقتى بالظل قوية .. هو حياتى ومصدر رزقى ، فلا شك أن غيرى من الناس كانوا يحتاجون إلى عدة أيام حتى يلاحظوا ..

ظلى الحبيب .. عُد لى ..

نظرت إلى ساعتى .. إن موعدى مع (مادلين) قد حان .. إننى دعوتها إلى السينما ..

مزاجى متعكر ولا يسمح لى ، لكننى مضطر .. ربما كنت بحاجة إلى التغيير .. أنا مرهق وسوف تنقذنى السينما .. سوف أصحو لأجد أننى كنت أهلوس ..

هكذا هرعت أبدل ثيابى ..

قرعت باب (مادلين) ففتحت لى أمها الباب ..

أمها سيدة مصرية عادية جدًا ، تؤمن بأن الخطبة طالت وأنه لم يعد مستحبًا أن يرانى الناس صاعدًا نازلاً من الدار ..

ـ « ألن تنشط يا (هانى) وتأتى بالشقة ؟.. »

كنت عصبى المزاج ، لكنى تكلفت اللطف :

ـ « بالتأكيد .. هناك شقة مناسبة سوف أراها الأسبوع القادم .. أعتقد أنها هى ... »

ـ « فى كل أسبوع ترى شقة مناسبة . هذا يتكرر منذ عام .. »

ـ « الشقق التى تروق لى لا أقدر على دفع ثمنها ، والشقق التى أقدر على دفع ثمنها لا تروق لى .. »

ـ « أنت صرت ناجحًا وتحقق كسبًا لا بأس به .. لم يعد للانتظار مبرر .. »

تذكرت الآن أنى على ما يبدو فقدت طريقة كسب رزقى .. أنا كالجراح الشهير الذى أصابه العمى ، أو بترت يده اليمنى ..

لو دام هذا الكابوس فلا أمل فى الزواج ..

عطرة كالزهرة ، أنيقة كقطة شيرازية ، ظهرت (مادلين) وقد تأهبت للخروج معى . حييت حماتى القادمة بسرعة وعصبية ؛ حتى لا يطول الكلام .. وسرعان ما كنا فى الشارع ..

* * *

سينما (ديانا) تقع على بعد نصف محطة من بيتها ؛ لذا فضلنا المشى ..

كان الفيلم قد بدأ فعلاً ...

ونظر إلينا (البلاسير) نظرة تجمع بين السخرية واللؤم والتهذيب .. يتوقع طبعًا أننا لم نأت للسينما كى نشاهد الفيلم .. معظم هؤلاء القوم يملكون طباع القوادين ، فهم ييسرون الخلوة لمن يرغب ، مقابل مال .. أنا لم أطلب ، ولست من هذا الطراز ، لكن عبارة (أى خدمة) مع الابتسامة الخبيثة تحمل معنى الإهانة .. الويل لك لو لم تدفع ...

دسست فى يده جنيهًا فاقتادنا إلى خلفية الصالة .. تحت كابينة العرض بالضبط .. موضع غريب جدًا ، اضطررنا معه إلى المرور أمام شعاع آلة العرض القادم من تلك النافذة فى الكابينة ، برغم أن الفتى طلب منا أن ننحنى . لكن أى انحناء ؟!.. كان عليه أن يطالبنا بالزحف ..

ونظرت بسرعة بطرف عينىَّ إلى الشاشة .. للحظة ملأ سلويت (مادلين) الشاشة ، فتعالى الصفير مع السباب من الصالة ، ثم لا شىء ... لم يكن هناك ظلان !.. ظل واحد فقط .. لحسن الحظ أنها لم تلحظ هذا ...

جلسنا .. بينما أطفأ (البلاسير) كشافه واستدار مبتعدًا ..

فعلاً مكان عجيب .. يصلح للذبح أكثر منه صالحًا للغزل .. لن أندهش لو التف ثعبان (بوا عاصرة) على قدمى ، وابتلعنى الآن ..

شعاع العرض يتحرك فوق رأسينا ، ونحن جالسان نلهث ونحاول استيعاب المكان ..

وعلى الشاشة (سعاد حسنى) تغنى (يا واد يا تقيل) الأغنية التى اجتاحت المجتمع المصرى مؤخرًا .. قالت لى (مادلين) :

ـ « هناك ممثل شاب جديد قادم من أمريكا .. اسمه .. اسمه (حسين فهمى) .. صديقاتى حكين لى عنه . يقلن : إنه وسيم لدرجة لا تصدق .. »

ـ « لا أعتقد أن هناك من هو أكثر وسامة منى .. »

فجأة هتفت (مادلين) :

ـ « أين هذا ؟.. »

لم أفهم .. لكن سمعت الصفير مع الشتائم .. كل الصالة تصرخ وتصفر وتضرب الأرض بأقدامها ..

رفعت عينى نحو الشاشة فرأيت أن هناك شخصًا أحمق سمجًا يقف أمام الشعاع ، حتى غطى الكادر كله تقريبًا .. أنا لا أرى الشخص ، لكن أرى ظله ..

لكن .. أين هو فعلاً ؟!.. أنا أرى الشعاع بوضوح ، منذ خروجه حتى سقوطه على الشاشة ..

لا يوجد أحد !

ونظرت إلى الظل المرتسم على الشاشة ، فعرفت على الفور ، وأنا خبير الظلال ، ظل من هو .. هذا الشعر الثائر ، والعوينات ، وياقة السترة المرفوعة لتغطى قذاله كأنها عباءة مصاص دماء ...

هذا الظل هو ـ ببساطة شديدة ـ ظلى أنا !

* * *

- 3 -

دعوت الله أن يتحرك هذا الشىء بسرعة ..

الصالة هائجة ثائرة ، والكل يضرب الأرض بقدميه ، ومن الواضح أنهم سيمزقون هذا الظل لو رأوه .. الكل ينظر إلى الخلف فلا يرى شيئًا .. شتائم من طراز خاص لا يخرج للسطح إلا فى مناسبات نادرة ..

والظل مُصِرٌ على استفزاز الجميع .. واقف بلا حراك ويداه فى جيبيه ..

همست (مادلين) :

- « من هذا ؟.. وأين يقف بالضبط ؟.. »

- « لا أعرف .. ربما هو داخل كابينة العرض ... »

وهو كلام سخيف طبعًا ؛ لأن العدسة تبرز خارج شباك العرض .. أى إنها لا تترك مسافة تسمح باندساس شخص ..

مرت لحظات ثقيلة كأنها الدهر ، ثم مر ذلك الثقيل مبتعدًا ...

تنهدت فى ارتياح كأن الذنب ذنبى ..

ثم تذكرت فى هلع أننى رأيت ظلى على الشاشة ، لكنه لم يكن ظلى .. ليست له علاقة بى .. إنه شخصية منفصلة تمامًا ...

ما معنى هذا ؟.. وكيف حدث ؟

لم أصارح (مادلين) بشىء من هذا .. لكننا استكملنا الفيلم وأنا لا أطيق لحظة واحدة منه .. أريد العودة لدارى لأفكر على مهل ...

ولما انتهى الفيلم شعرت بأننى شخت بضعة أعوام ..

عند باب بيتها طلبَتْ منى الصعود ، فاعتذرت لأن الوقت تأخر .. سألتنى :

- « لماذا لم تظهر فى برنامج الأطفال ظهرًا ؟.. نسيت أن أسألك ؟.. »

- « كنت متوعكًا .. جميل أنك لاحظت .. »

- « أنا لا أفوت حلقة واحدة .. »

وتركتنى داخلة البناية العتيقة ، ووجدت نفسى وحدى من جديد ...

إنها العاشرة مساء .. لن أقدر على النوم أو الأكل ما لم أعرف ما حل بى . حالتى النفسية لا تسمح سوى بالوثب من الشرفة لو تُركتُ وحدى ...

هكذا اتجهت إلى هاتف عمومى ، وطلبت رقم (عزت) .. ذلك النحات المريض الذى تعرفت به منذ عام .. كان قد عاد من

الخارج ، بعد زيارة استغرقت شهرًا للولايات المتحدة ، وقد جلب لى هدية تثير الغيظ .. لكن هذا ليس موضوعنا على كل حال ..

ـ « كيف حالك يا (عزت) ؟.. أين تسكن ؟.. »

ـ « فى الدقى .. لا يعنى هذا أننى لا أرحب بزيارتك ، ولكن لماذا تسأل ؟.. »

ـ « ما اسم ذلك الطبيب الذى حكيت لى عنه من قبل ؟.. أصلع ، نحيل ، أعزب ، غريب الأطوار ، يهتم بالماورائيات .. »

ـ « رفعت إسماعيل .. لماذا تسأل ؟.. »

ـ « هذه قصة طويلة .. فقط أريد أن ترتب لى لقاء معه .. أعتقد أنه فى داره الآن .. إنه غريب الأطوار ، يكره البشر ويحب الليل .. فلا شك أنه فى البيت !.. »

ـ « غريب هذا .. من الصعب أن .... »

هنا فقدت أعصابى ؛ فصحت بصوت جعل كل الشارع ينظر إلىَّ :

ـ « أريد أن أقابله الآن ، وإلا قتلت نفسى ، وكتبت أنك المسئول مسئولية كاملة عن انتحارى !.. »

بدا على صوته الارتباك .. إن الصراخ فى الوجه من أعلى درجات التبسط ورفع الكلفة ، وعلاقتنا لا تسمح بالتبسط ... ليس إلى هذا الحد ..

قال بصوت مبحوح فاتر قليلاً :

ـ « نعم .. أعتقد أنه فى داره .. كم من الوقت يلزمك لتصلنى ؟.. إن العنوان هو .... »

دونت العنوان فى ورقة ، وأسرعت أبحث عن سيارة أجرة ...

عندما وصلت تلك البناية فى الحى الهادئ بالدقى ، قابلنى عزت على الباب ، فقال لى وهو ينظر حوله فى توتر :

ـ « لاحظ أنه غريب الأطوار نوعًا .. لا تبد دهشة .. »

ـ « لا يمكن أن يكون هناك من هو أغرب منى .. »

وصعدت على الدرج مع عزت .. هناك بلغنا ذلك الطابق الذى يعيش فيه ، فاتجه إلى باب شقة ودق الجرس ، فانفتح الباب ، لأجد أمامى رجلاً أصلع شديد النحول ، لا يضع كسرولة على رأسه ..

ـ « تفضل .. لقد أعطانى (عزت) فكرة عنك .. »

ونظرت إلى عزت فى إشارة جانبية ، ففهم على الفور .. طلب منا الإذن وعاد لشقته ، وإن وعدته بأن أمر عليه . لا أحب زيارة العزاب على كل حال ، لكنى مضطر .. دائمًا تكون شققهم قذرة متسخة ، ولا يقدمون شيئًا ذا بال .. فإذا أكلت عندهم فهى شطائر الطعمية إياها .. وإذا شربت فهو الشاى كريه المذاق ..

هكذا جلست ..

وهكذا رحت أحكى لرفعت إسماعيل قصتى مع الظلال ... أو قصتى مع الظلال التى لم تعد هنالك .. حكيت له بالتفصيل الممل ، حتى موضوع السينما والشعاع و(يا واد يا تقيل) ..

ظل يصغى فى اهتمام ، ثم قال لى :

ـ « الغريب أن هذه ليست المرة الأولى .. وإنها لصدفة عجيبة حقًا .. »

ثم دخل غرفة ما ، وعاد بكشاف وضعه أمامى ، وطلب منى أن أقف بينه والجدار .. نهضت وفعلت ذلك شاعرًا بذلك الشعور الكريه الذى تشعر به عندما يرغمك الطبيب على التعرى لينكشف مرضك واضحًا للمرة الأولى .. قبل هذا كنت أقنع نفسى أن الأمر ليس خطيرًا ..

الآن أنت ترى الحجم الكامل لمشكلتك ..

لا يمكن أن تقنع نفسك بأنك واهم ..

الأسوأ أن ترى عينى الطبيب المذعورتين .. هكذا تدرك أنك انتهيت !

* * *

- 4 -

قال لى رفعت وهو يجلس على تلك الأريكة :

ـ « عامة لم ألق حالة كهذه من قبل .. خبراتى متشعبة بما لا يمكن أن تتصوره ، لكن هذه الظاهرة عجيبة .. هناك قصص فى الأدب العالمى عن أشخاص فقدوا ظلهم .. هناك قصة شهيرة جدًا لهانس كريستيان أندرسن عن رجل تخلى عنه ظله ، وصار الظل رجل أعمال ناجحًا .. لكنه بعد أعوام عديدة شعر بالحزن لأنه ليس له ظل !.. هكذا حاول أن يجرى صفقة مع الرجل بأن يصير هو ظله .. ظل الظل !.. إنها قصة عجيبة(*) .. »

قلت فى حزن :

ـ « أعرفها .. لا تنس أنى أعمل فى برامج الأطفال ، وأقرأ الكثير من القصص العالمية .. »

ـ « ليست قصة أطفال أبدًا .. إنها مخيفة كابوسية .. هناك فيلم ألمانى شهير يعود لعصر السينما الصامتة .. هذا رجل تخلى عن ظله مقابل أن يفوز بحب فتاة معينة .. النتيجة أنه فاز بحبها .. لكنه فقده بسرعة ؛ لأنها أصيبت بالذعر عندما مشت جواره فى الشارع ووجدت أنه من دون ظل .. اعتقدت أنه الشيطان ذاته ، وفرت منه .. اسم هذا الفيلم (الظل المفقود) ... »

(★) قدمناها فى (روايات عالمية للجيب) ـ الكتيب رقم 55

قلت فى غيظ :

ـ « د . رفعت .. أنا سعيد جدًا بهذه الجلسة التثقيفية ، لكنى لم آت هنا كى أسمع محاضرة عن الظل فى الأدب العالمى .. هل يمكنك أن تساعدنى ؟.. »

قال على الفور :

ـ « بالطبع لا .. فقط يمكننى أن أقول لك : إنك لست الوحيد .. هناك سيدة أعرفها فقدت ظلها .. المشكلة أنه تحرر وبدأ يقتل على ما أعتقد !.. »

ـ « هذا جنون !.. »

ـ « والظلال المفقودة ليست جنونًا ؟!.. »

ثم هدأ قليلاً وعاد يسألنى :

ـ « هل يمكنك أن تؤكد أنه لا علاقة لك بالسحر الأسود ، أو شىء لا أعرفه مثل ارتياد المقابر .. ربما سرقة قطعة أثرية فرعونية ما ؟.. »

ـ « بالطبع لا .. ما أعرفه هو أننى فقدت عملى على الأرجح .. لو فقد أى إنسان آخر ظله فلا مشكلة بالنسبة إليه .. مشكلة جمالية بسيطة ، بينما أنا أفقد مصدر رزقى الوحيد .. لماذا أنا بالذات ؟!.. »

ـ « مثلما يفقد الموسيقار سمعه أو الجراح يده .. هذه أشياء تحدث برغم قسوتها .. ولكن أظن أن بوسعك تطوير أدائك .. ماذا عن استعمال دُمَى الظل على طريقة (صقلية) ؟.. »

المهم أننى عرفت بوضوح أنه ليس لديه ما يقدمه لى ..

عندما غادرت داره وجدت أننى أحمق عندما أبديت كل هذه الهستيريا مع (عزت) ، كأن رفعت يملك عصا سحرية يعيد إلىَّ ظلى بها ..

هو فقط محق فى نقطة واحدة ، هى أن علىَّ أن أستعين بالعِصِىِّ والدُّمَى ... يجب أن أتأقلم مع فقدانى للظل ..

* * *

أنا الآن فى دارى ، أكتب هذه الكلمات فى كراس مذكراتى ..

لقد أعدتُ البحث عن ظلال فلم أجد .. لهذا تعمدت أن أخفض الإضاءة وأغلق أكثر الأنوار ؛ لأن هذه الأضواء الخافتة تبعث فى نفسى الرعب ...

لن أنهزم .. سوف أغير من طريقة أدائى .. وهكذا أستمر فى كسب رزقى إلى أن أفهم فعلاً ما حل بى ...

شربت كوبًا من الشاى ، وجلست أتأمل صورة مادلين الموضوعة على مكتبى .

رقيقة ، شفافة ، نبيلة .. لا يمكن أن أفقدها أبدًا ..

لكن لو عرفتِ الحقيقة ، فهل تخاف منى كما حكى لى هذا المدعو (رفعت) ؟

هل تعتبرنى ممسوسًا أو الشيطان ذاته ؟

لن تلاحظ .. سوف تحتاج إلى وقت طويل جدًا قبل أن تلاحظ .. الناس لا تنظر إلى ظلها إلا مرة كل عام .

يا له من يوم طويل مرهق ..!

لا أصدق أن موضوع اختفاء الظل هذا حدث ظهرًا .. كأنه حدث منذ قرون ..

السينما .. الظل أمام الشاشة .. رفعت إسماعيل .. كل هذا كثير جدًا بالنسبة ليوم واحد ..

أنا مرهق فعلاً ..

لكن ....

الأمر يتجاوز حد الإرهاق العادى ..

أنا بالفعل عاجز عن النهوض ، وأشعر كأن وزن هذا القلم أطنان ..

هذا الثقل فى صدرى وخلف عظمة القص ... لو صدقت ما أقرؤه لقلت إنه نوبة قلبية .. لكن هذا مستحيل فى سنى على ما أعتقد .. أنا لم أدخن لفافة تبغ قط ..

لكن .. الإرهاق ..

أريد .. أن .. أغمض .. عينى .. وأستريح ..

شىء يخبرنى بأننى لو فعلت فلن أفتحهما ثانية .. يجب أن أقاوم ..

لكنى بالفعل أرغب فى ذلك ..

أريده ..

أريـ ....

* * *

الجزء الثالث

قــوم الظــلال

يحكيه رفعت إسماعيل

-1-

الناس يفقدون ظلالهم ..

ثمة أدلة تخبرنى أن هـذه الظلال لا تختفى فحسب ، بل هى تجول وتثير الهلع فى القلوب ..

عرفت نبأ وفاة (هانى) فنان الظلال هذا بعدها بيومين .. لقد كان عندى وعـاد لـداره التـى يعيش فيهـا وحده .. جلس يدون تجربته تلك ، بما فى ذلك اللقاء معى ، ويقول الطبيب الشرعى : إنه أصيب بنوبة قلبية وهو جالس ...

طبعًا لم يصدق رجال الشرطة حرفًا من هذا الجنون الذى كتبـه فى مذكراته ، لكنهم طلبونى ليسمعوا رأيى ، مـا دام اسمى فـى الأوراق ..

كانوا يريدون التأكد من نقطة واحدة ؛ هى كونه انتحر أم لا ..

قال العقيد الذى يحقق فى القضية ، وهو يتصفـح أوراق ملـف أمامه :

ـ « الانتحار نوع من الجنون الوقتى .. وصاحبنا قد جن كمـا هو واضح .. تصرفاته أدنـى إلـى الانتحـار ، خاصـة مـع كتابـة

مذكرة ، وما إلى ذلك .. مشكلتنا كانت تبيُّن وجود مادة سامة ما في غسيل المعدة .. لم يجد الطب الشرعى ما يدل على هذا ، لكنه وجد علامات احتشاء ممتد .. ما معنى احتشاء ؟.. »

قلت فى كياسة :

ـ « هذا هو ألعن ما يمكن أن تحدثه الذبحة الصدرية .. جزء كبير من عضلة القلب قد مات .. »

ـ « وهذا يعنى أن الوفاة طبيعية .. »

هززت رأسى ..

إن الموت المفاجئ ليس نادرًا .. نحن نراه كثيرًا جدًا ، والشباب يموتون كثيرًا هذه الأيام ، لكن ظروف الوفاة غريبة وتلقى علامات استفهام عديدة .. لماذا يموت المرء فى اليوم الذى يفقد ظله فيه ؟

قبل هذا ، هناك قصة تلك الأم التى فقدت ظلها يوم شم النسيم أو قبله ، ثم عادت للبيت لتموت بلا سبب واضح ...

بعد هذا مات الأب بنوبة قلبية ، لكنه لم يفقد ظله ..

بشىء من الخيال يمكن أن نقول : إن من يفقد ظله يفقد حياته .. كأن شيئًا مهمًا قد انتزع منه .. خلاصة وجوده ذاتها . ثم يجول

هذا الظل حرًا ينشر الذعر .. البواب رأى هذه الظلال .. عزت رآها .. الفتاة منى رأتها .. الفتى رامى رأى طرفًا منها .. هانى رأى ظلاً يشبهه لكنه حر تمامًا على شاشة السينما ... وهنا يمكن أن نفهم كيف يموت رجل يصحو من نومه ليجد ظلاً بلا صاحب جوار فراشه .. أنا شخصيًا كنت سأفعل هذا ..

كل هذا غريب ..

لم أسمع عن شىء مماثل من قبل .. والأهم هو السؤال : لماذا الآن ؟... لماذا هذان ؟.. الأم وفنان الظل ؟

ما الذى يجمع بينهما ؟

* * *

عدت لشقتى العامرة بى وحدى ، فى الثامنة مساء ، فدخلت المطبخ ووضعت على الموقد إناء به ماء . سوف أعد بعض المكرونة ، وهى وجبة ممتازة تصلح لتحل محل ثلاث وجبات .. لاحظ أننى لن آكل شيئًا حتى هذا الموعد غدًا . من الثلاجة أخرجت شريحتين من اللحم المسلوق المجمد .. أنا أسلق اللحم على شكل شرائح وأجمده بهذه الصورة ، بحيث أضع شريحة أو اثنتين مع الوجبة التى أطهوها .. هذا يوفر الكثير من الوقت ..

تسألنى عن كيفية الحصول على الحساء إذن .. وما شأنى أنا بهذا الكلام الفارغ ؟! .. دع الحساء للمترفين ..

دخلت غرفتى ، فبدأت أنزع ثيابى وأنا أفكر فى هذه القصة .. هنا رأيت من يتحرك فى الممر خارج الغرفة !

توقفت عن الحركة ونظرت مدققًا .. بالفعل .. هناك ظل يمشى فى الممر .. معنى هذا أن صاحب الظل يقف على باب المطبخ الآن ..!

لص .. فى هذا الوقت ؟! وماذا يريد ؟! وكيف دخل ؟!

لكنى متأكد من شىء واحد .. هناك شخص ما فعلاً ؛ لأننى لست من الهستيريين الذين يتخيلون أشياء ..

لحسن الحظ أن الهاتف جوار الفراش .. هكذا اتجهت نحوه بحذر ، وعيناى لا تفارقان الباب .. طلبت الشرطة ، وانتظرت دهرًا حتى رد الصوت الملول ..

قلت له همسًا :

ـ « أنا د . (رفعت إسماعيل) .. أعتقد أن هناك لصًا فى بيتى .. عنوانى هو .... »

أخذ البيانات وعد بأن يرسل لى من يتبين الأمر .. طبعًا سوف يستغرق الأمر ساعة ، وعندها ستتلخص مهمتهم فى معرفة سبب الوفاة ...

وضعت السماعة وأطللت برأسى فى حذر من باب الغرفة ..

لا أحد ..

أرى المطبخ بوضوح وأعرف أنه لا أحد فيه .. يبدو أن المتسلل فى غرفة المكتب الآن .. من المستحيل أن يقطع علىَّ الطريق إلى المطبخ إذن ..

هكذا جريت إلى المطبخ .. لم يكن هناك صوت سوى الماء الذى يغلى بجنون داخل الإناء ... أمسكت بالإناء من المقبضين .. وانتظرت ..

لو أطل هذا الشخص علىَّ الآن فلسوف يكون أول شىء أفعله هو قذف محتويات الإناء من الماء الساخن فى وجهه .. أذكر أننى فعلت هذا ذات مرة مع شبح عائد ، ويبدو أنها طريقة فعالة ..

ابتسمت لهول المفاجأة التى سيراها هذا القادم .. بل إن جزءًا ساديًا فى ذاتى راح يتمنى أن يطل علىَّ الآن ، فهو انتقام جميل من الخسارة ألا يتم ...

هكذا وقفت فى المطبخ .. يداى تمسكان بالإناء ، ووجهى نحو الباب .. لن أنتظر كثيرًا ...

سوف يقترب الآن ..

أتصور كيف يبدو بالجرح على خده ، والسوار حول معصمه ، وضخامته .. اسمه (زينهم) أو (سنقر) .. مسجل خطر بالتأكيد .. سطو مسلح أكثر من مرة .. لابد أنه يحمل مطواة .. لابد أن عينيه حمراوان وله سن ناقصة .. لابد أنه ....

إنه هنا !

أرى ظله يرتسم أمامى جوار فرجة باب المطبخ ... ظل عملاق يرتسم ظلى جواره صغيرًا واهنًا ...

معنى هذا أنه يقف خلفى ..!

ولكن كيف ؟!.. لا توجد مخابئ فى المطبخ ، ولا شرفة يتوارى فيها ويخرج منها .. من أين جاء ؟!

استدرت للخلف بسرعة ، وبلا تفكير قذفت الماء المغلى نحو مصدر الظل ....

بالطبع لم يكن هناك أحد !

* * *

- 2 -

أغرق الماء المغلى كل شىء .. وتصاعد البخار فى كل صوب ..

بل إن بعضه تسرب إلى أصابع قدمىَّ فى الخفين .. فشهقت ..

سال على الجدران وعلى الثلاجة والمنضدة الصغيرة ..

لكن لم يكن (زينهم) هناك ..

ألقيت بالإناء على الأرض ؛ لأن الحرارة أحرقت أناملى ، واستدرت لأرى أين ذهب الظل ..

كان ما زال هنالك واقفًا ..!

هو ليس ظلى .. إنه ظل شخص ضخم .. شخص ضخم جدًا ، لكن تَبيُّن ملامحه عسير لأنه أقرب إلى كتلة من الظلام .. يمكننى بشىء من الخيال أن أقول إن عينيه حمراوان كجمرتين ..

لقد وجدونى إذن !

اتجهت إلى الباب وأنا أجر قدمى .. لكنه ظل واقفًا جواره ..

لا شك فى الأمر .. هذا ظلّ حرّ .. ظل بلا صاحب .. ظل يتحرك بإرادته الخاصة ..

شىء مرعب .. لكنه ليس بالغريب على .. قوم الظلال شـأنهم معـروف فى الأسـاطير والظـواهر (الفورتية Fortean) .. لكن ما لا أعرفه فعلاً هو الظلال التى تترك أصحابها ..

المشكلة الأخرى هى أن (الكينونة) أخـبرتنى بكارثـة قادمـة ، وأنا أعرف كوارثها .. كل إنـذار ترسله لـى صـادق تمامًا لكنـه غامض .. أن ترى حريقًا فى بيت صـاحبك فتتصل بـه لتقـول : « كن حذرًا .. » ولا تقدم أية تفاصيل ....

الكوارث التـى تنذرنـى بقدومها لا تمـس شخصى غالبًا ، بل تمس الجميـع .. إنـه رعب من الطـراز الاجتيـاحى أو (رعـب هرمجدون) كما يسمونه فى الغرب .. رعب يهدد الحياة ذاتها .. لكنى عاجز عن الاستيضاح منها ..

أعرف ما سوف يحدث ..

غالبًا هذا الظل خرج للقنص ، أو إثارة ذعرى حتى الموت .. ولكنى لن أترك له فرصة ..

هكذا اتجهت إلى الهاتف وبحثت فى الدليل عن رقم معين ...

* * *

فرغ (عطية) الكهربائى من تركيب آخر مصباح (فلورسنت) ونزل عن السلم الخشبى وهو يضرب كفًا بكف ..

ـ « والله يا دكتور ما كنت أفعل هذا لواحد آخر .. لا يمكن أن تقنعنى بتركيب كل هذه المصابيح فى الحادية عشرة مساء ، والأمر لا يتعلق بالطوارئ ... النهار له عينان .. »

ثم نظر إلى ما قام به .. وقال فى دهشة :

ـ « خمسة مصابيح فلورسنت فى قاعة ضيقة كهذه !.. قلت إنك تبالغ !.. »

أما أنا فابتسمت ورحت أنظر إلى الفوضى التى سببها .. كل هذه الأسلاك والغبار الناجم عن استعمال المثقاب ، وقطع لاصق الكهرباء .. ثم رفعت يدى ورحت أفتش عن ظل .. أى ظل على أى جدار .. لكن الإضاءة كانت ساطعة إلى درجة لا توصف وفى كل الاتجاهات .. لا يوجد ركن واحد يمكن أن يتوارى ... كـأننى أقيم حفل زفاف فى هذه القاعة ..

نقدت الرجل مالـه شـاكرًا .. فحمل سلمه واتجـه للبـاب وهو يقول كلامًا لا أسمعه طبعًا ..

سوف أبيت ليلتى فى هذه القاعة ، حيث لا ظـلال تتسلى علىَّ .. ربما أقيم هنا دومًا إلى أن أفهم ما يحدث هنا ..

عندما فتحت الباب وجدت رجال الشرطة !

ـ « قيل لنا : إن هناك لصًا فى هذه البناية .. هل أنت د. (رفعت إسماعيل) ؟.. »

نظرت إلى ساعتى .. توقعت هذا ..

سيكون تفسير الأمر عسيرًا .. أنا اتصلت يا سيدى لأن هناك ظلاً بلا صاحب فى شقتى !.. لا يمكن أن أقول هذا .. يجب أن أكذب .. أكذب كثيرًا جدًا ..

بعد انصراف الجميع ، جلست فى تلك القاعة ساطعة الإضاءة .. لقد نسيت كل شىء عن العشاء الذى أعددته ، لكنى كنت فخورًا بعبقريتى .. ما دمت عاجزًا عن فهم ما يحدث ، فلأقض على الظلال ، إما عن طريق إضاءة ساطعة وإما عن طريق الظلام .. طبعًا الظلام لا ينفى وجود الظلال متوارية ، بينما الإضاءة الساطعة تبددها تمامًا ..

لتكونَنَّ معيشتى أكثر الوقت فى هذه الغرفة ، وربما نومى كذلك ..

مر الوقت .. فتحتُ جهاز التلفزيون ورحت أتابع .. جلست .. اعتدلت .. نقلت ساقى .. نهضت .. جلست ...

بعد قليل فطنت إلى أننى أتوتر أكثر فأكثر .

هذه الإضاءة تحطم الأعصاب فعلاً ، دعك من أن الله خلق جهازنا العصبى كى ينام ليلاً .. كى يجد الضوء الخافت أو الظلام حوله ليلاً .. أية محاولة لخرق ناموس الطبيعة البيولوجية هذا لابد أن تقود إلى اضطراب نفسى .. ربما إلى الجنون ..

ليس بهذه السرعة طبعًا .. سوف أتوتر ثلاثة أو أربعة أيام ، ثم أبدأ الكلام عن مؤامرة المخابرات المركزية لقتلى ؛ لأننى أملك أسرار القنبلة الهيدروجينية ، ثم تأتى مرحلة الكسرولة على الرأس .. القصة دومًا هكذا ..

الضوء الساطع المنبعث من خمسة مصابيح فلورسنت جديدة يشعرك بأنك لا تسترخى ، وإنما أنت فى ستوديو 3 فى التلفزيون المصرى ..

للمرة الأولى بدأت أفطن إلى أنها كانت فكرة غبية ، وأن الكهربائى بعيد النظر حقًا ..

هكذا نهضت وأغلقت مصباحين ..

ثم توكلت على الله وأغلقت اثنين آخرين ..

هكذا لم يبق سوى مصباح واحد يبعث ظلاً لا بأس به .. ربما أموت .. لكنى سأموت بكامل قواى العقلية ...

لكن الوضع لن يستمر بهذه الطريقة .. لابد من حل ما ..

هنا خطر ببالى اسم نسيته منذ زمن .. الدكتور (عماد بدوى) ..

* * *

- 3 -

كان د. (عماد) أستاذًا لعلم الفيزياء ، وقد حصل على الدكتوراه من إنجلترا ، فى ذات الأعوام التى كنت أدرس فيها ..

يبدو أن الجو فى الجزر البريطانية فى ذلك الوقت كان مسمومًا ؛ لأن كل من حصل على الدرجة وقتها تميز بعد ذلك بشىء من غرابة الأطوار أو الخبال ، فى رأى الآخرين ..

هناك رفعت إسماعيل الذى يعتبره الكثيرون مجنونًا من طراز خاص راق ، وهناك د. (عماد بدوى) الذى عاد إلى مصر وانهمك فى أبحاث غريبة جدًا لم يطلبها أحد منه ، ولم يدر أحد إلام تقود ..

كان رجلاً لا يعمل إلا بإيحاء من حدسه ومزاجه المتقلب .. لهذا قد يكون موضوع المحاضرة عن المغناطيسية ، فيتكلم عن لعنة الفراعنة والألغاز التى تحيط بالمقابر الفرعونية القديمة ..

كان لابد أن تتسرب أخبار كهذه عن طريق الطلبة لعميد الكلية .. هذا رجل يشرح منهجه الخاص الذى لا علاقة له بالمنهج الذى يجب أن يلم به الطالب ..

لم يكن د . (عماد) من الطراز الذى يقتنع أو يصغى ، وكان حادًا بشدة ؛ لذا أعتقد أنه تشاجر مع العميد عدة مرات ..

هو فى الخامسة والخمسين من عمره الآن ، له مظهر لا يوحى بالعلماء على الإطلاق ، إنما هو مقاول يجيد عمله .. اللون الأسمر ، والبدانة ، والشارب الكث العريض حتى ليوشك على لمس حلمتى أذنيه .. بذلة مفتوحة لم تمر على الكواء منذ زمن ، وتحتها قميص طار منه زر أو اثنان ، وكرش عملاق رجراج يحبسه فى حزام جلدى مهترئ اشتراه من إنجلترا منذ عقدين تقريبًا .
والغريب أن طابع الثياب الرثة هذا لم يعطه طابع راهب العلم مثل أينشتاين مثلاً ، ولكنه أعطاه المزيد من طابع المقاول الذى يكسب كثيرًا جدًا لكن لا وقت له للعناية بمظهره ..

كان - باختصار - درسًا يعلمك التحرر من القوالب المحفوظة فى ذهنك .. العالم الأصلع الملتحى موجود فقط فى أفلام الخيال العلمى ..

على كل حال ، كان لابد أن يُطرد من الجامعة يومًا ما ، والسبب كان قضية شبه أخلاقية أتيح لى أن أرى طرفًا منها ، ولن أحكيها لك .. على الأقل الآن .. كلا .. لا يذهبن مخك بعيدًا ، وإنما يتعلق الأمر بتجارب غير إنسانية لا يمكن لأحد أن يوافق عليها ..

* * *

ذهبت إلى بيته ظهر اليوم التالى ؛ لأننى أعرف أنه يتأخر فى الاستيقاظ ..

يقيم الرجل فى الزمالك ، فى شقة فاخرة ابتاعها لدى عودته من البعثة ، وقد تزوج مرتين وطلق مرتين ؛ لأنه ما من أنثى تتحمل عصبيته وحِدّته .. ومن حسن الحظ أنه لم ينجب .. وإلا كان على أطفاله تحمل الكثير ..

الحقيقة أننى لا أعرف من أين ينفق بالضبط .. ولعله يعتمد على ميراث ضخم ...

فتح لى الباب ، وكان ما زال يلبس منامته وهو موشك على الشجار ، فلما رآنى ضحك وشدنى إلى الداخل وهو يسبنى بلا سبب واضح ..

كان يملك أسبابًا كافية كى يحنق علىّ ، لكنه كان يملك أسبابًا أقوى كى يحترمنى .. أنا لم أتكلم ، ولعل هذه غلطة عمرى ، لكنه يعرف أننى لم أتكلم .. بالنسبة إليه من يتكلم حقير واش ، بينما بالنسبة إلىّ من يتكلم هو شخص أكثر حزمًا وأشجع منى ..

لعل هذا من حظى الحسن ، لأنه ما كان ليسمح لى بدخول بيته فى ظروف أخرى ..

كانت الشقة الواسعة مرتبة بعناية ؛ مما دلنى على أن هناك من ينظفها له . وكانت مغلقة بعناية وإحكام ، بحيث يصعب أن تصدق أننا فى وقت الظهر . وكانت هناك شرفة واسعة مسقوفة

بها مجموعة من أقفاص العصافير ونباتات الظل .. وهناك سلحفاة مملة ثقيلة الظل تزحف في مكان ما ..

برغم كل شيء ، يحيا هذا الرجل حياة جميلة ..

ـ « هل تزوجت يا رفعت ؟.. لا ؟.. هذا أفضل .. خذني أنا كنموذج الرجل الذي تزوج أكثر من اللازم ، وفي النهاية أعيش مثلك .. »

وراح يسألني عن كل شيء وعن (ماجي) التي كان يعرفها طبعًا .. إن (ماجي) فيزيائية مثله كذلك ، وهذا جعله يعرفها جيدًا ..

نهض ليحضر لي شيئًا أشربه ..

رحت أنظر إلى الجدران البيضاء الأنيقة من حولي ، ولاحظت أنه لا يعلق أية لوحات أو قطع ديكور .. إنه عملي دومًا ؛ فلا شك أنه يعتبر الفنون كلامًا فارغًا ..

هنا رأيت الظل !

يرتسم أمامي على الجدار في وضوح .. إنه ظل عملاق مهيب يحمل شيئًا ما في يده .. لكن الأسوأ أنه يصغر في كل لحظة ويزداد تحديدًا ...

يصغر .. يصغر ..

تحفزت ووقفت في مكاني لا أعرف إن كنت أنادي (عماد) مستغيثًا أم أفر من هنا أم ....

هنا فوجئت بعماد يقف جواري وهو يحمل صحفة عليها زجاجة مياه غازية ..

ـ « ما بك ؟.. تفضل !.. »

نظرت إليه ونظرت إلى الظل فوجدت ظلين .. الظل الثاني ظل رجل نحيل أصلع يتناول زجاجة مياه غازية شاكرًا . لقد كان ما رأيت هو ظل عماد القادم من المطبخ المضاء ..

عندما تصير الظلال عدوًا لك فأنت في طريقك للجنون بالتأكيد ؛ لأن الظلال في كل مكان ...

لحسن الحظ أنه لم يلحظ حماقتي .. جلس وراح يعبث بشاربه بعض الوقت ..

في النهاية بدأ يسألني عن سبب قدومي ، فقلت له :

ـ « الظلال .. »

حك ذقنه نصف النامية في اهتمام وقال :

ـ « الظلال .. فهمت .. موضوع مهم فعلاً.. لكن ماذا في الظلال ؟.. »

ـ « إنها تلاحق الناس ... يبدو أنها تقتلهم كذلك .. لو اعتقدتَ أننى جننت فأنت مخطئ على الأرجح .. »

ـ « أنا لا أعتقد أنك جننت .. أنا مؤمن بأنك مجنون فعلاً يا رفعت .. لن يحدث ما هو أسوأ .. »

شرحت له القصة بالتفاصيل الدقيقة ، وقد ظل يستمع لى فى اهتمام ..

فى النهاية ، وقد أدرك أننى أنهيت ما عندى ، قال :

ـ « أنت تتحدث عن قوم الظلال .. تعرف أننى مهتم بهذا الموضوع .. »

ـ « لهذا جئتك ... »

وضع ساقًا على ساق وأشعل لفافة تبغ كريهة الرائحة ، ثم راح يحكى عن قوم الظلال ..

لكنى وجدت الوقت الكافى كى أتذكر ...

* * *

ـ 3 ـ

كان المطر ينهمر مدرارًا فى تلك الليلة منذ عشرين عامًا .. أعرف أننا لسنا فى (سيبريا) وأن جو مصر جاف على الأرجح ، لكن المطر كان ينهمر مدرارًا ومعه يشق البرق السماء .. الحق أنها كانت ليلة جديرة بالرعب القوطى ..

قلت لنفسى ، وأنا أوقف السيارة بينما المطر يغرق الزجاج :

ـ « لقد أعدَّت الطبيعة المسرح واعتنت به .. لا ينقصنا إلا أحداث درامية مروعة .. أحداث مرعبة تتناسب مع هذا الجو .. »

وفتحت الباب .. طبعًا هذا خطأ قاتل فى العواصف الرعدية ؛ لأن أفضل سياسة هى أن تبقى فى السيارة كما أنت إلى أن تنتهى العاصفة ، لكنى قررت أن القوطية لن يصل حماسها إلى درجة إلقائى ميتًا بصدمة كهربية ...

كانت عيادة (صفوت) الجراحية تقع فى الطابق الأرضى ، بينما يسكن هو فى الطابق العلوى . أمام البيت حقل يمتد لمرمى البصر ، وقد جعلت الأمطار كل شىء موحلاً رطبًا ؛ لهذا كان على أن أدور حول السيارة بحذر شديد ..

أخيرًا وضعت قدمى على مدخل البناية المبنية بالطوب الأحمر ، فدخلت ..

أرى لافتة تقول (صفوت عبد الغنى – جراحة عامة) . الباب مغلق طبعًا ؛ لأنه ما من مجنون يمكن أن يأتى فى وقت كهذا ..

دققت الباب عدة مرات فانفتح وظهر لى وجه (عماد) .. كما قلت ، كان هذا منذ أعوام طويلة ، لهذا كان أكثر صبا ووسامة .. لم يكن له شارب المقاولين المرعب هذا ، ولم يكن طلاقه الأول قد وقع ؛ لهذا كانت ثيابه تحمل لمسة عناية الأنثى لا لمسة الصرف الصحى .

– « لابد أن العاصفة جعلت وصولك متعبًا .. تعال بسرعة .. »

فى الداخل كان زميلنا المشترك (صفوت) ... (صفوت) رجل صغير الحجم ، حليق الوجه ، أقرب فى كل شىء إلى طفل صغير هياب ..

كان واقفًا فى وسط العيادة الخالية ، وقد بدا عليه التوتر .. صافحنى وقال :

– « لا أعرف لماذا طلبك (عماد) فى هذا الجو الكريه ، لكن مرحبًا بك .. سأعد لك الشاى حالاً .. »

نعم !.. الشاى !.. لا شىء كالشاى للتدفئة وإزالة الإرهاق ..

جلست على مقاعد الانتظار أرتجف ..

كانت المرة الأولى التى أزور فيها صفوت فى عيادته الريفية .. هنا كان يجرى الجراحات ، وكانت هناك ثلاث غرف مخصصة لما بعد الجراحة .. هذا تنسيق شائع فى الريف ..

لم يكن هناك أحد على الإطلاق . ولما جاء الشاى الساخن رحت أرشفه فى تلذذ .. لاحظت أن الرجلين متوتران بحق .. ثم غاب (صفوت) داخل إحدى الغرف للحظة ..

عاد بعد دقيقة ليقول :

– « اقتربنا جدًا .. »

لم أفهم ما يتحدث عنه ، لكن (عماد) قال لى فى كياسة :

– « أعتقد أن عليك أن تفرغ من الشاى بسرعة .. »

لم أكن أفهم سبب استدعائى على الإطلاق ؛ لذا نهضت متجهًا إلى حيث أشار لى ..

كانت غرفة بها فراش من تلك الغرف التى يقضى فيها المرضى أيام ما بعد الجراحة .. فراش طبى .. لا أثاث تقريبًا ..

على الفراش رقد رجل مسن يبدو واضحًا من ملامحه أنه يلفظ أنفاسه الأخيرة .. يحدق فينا بعينين جاحظتين مذعورتين لا تريان .. ثمة زجاجة محلول بجواره ، فرغت فتدلت بلا حيلة .

قال (صفوت) بصوته المبحوح :

ـ « انسداد معوى متقدم .. لم يكن هناك ما يمكن عمله .. إنه يُحتضَر الآن .. »

شعرت بغيظ لأنه يقول هذه الدقائق أمام المريض .. المريض الذى أعرف يقينًا أنه يسمع ما نقول ، وإن لم يبد عليه شىء ، حيث وقف على الحافة بين عالمنا وعالم آخر ...

ـ « وأقاربه ؟.. »

ـ « لا أقارب له .. إنه غريب عن بلدتنا ، ومن جاءوا به تركوه هنا .. بعد وفاته سوف نبلغ الشرطة عن ناقص الأهلية هذا .. »

ونظرت إلى أرجل الفراش ، فبدأت أفهم ..

واقشعر جلدى ..

تحت كل رِجل من أرجل الفراش كان هناك جهاز زنبركى غريب يذكرك بالميزان .. وقد اتصلت أربعة الأجهزة بمؤشر رقمى على بعد خطوات .. كانت هناك كاميرا وجهاز تسجيل .. ولكن أين الـ ...؟

بحثت عنه فوجدته .. خيمة من المشمع الشفاف كأنها من خيام الهنود الحمر ، تصلح لوضعها فوق الفراش ، بحيث تغطى المريض تمامًا ... هذا هو بديل الناقوس الزجاجى ...

كان صفوت وعماد يتعاونان الآن على وضع المشمع على الفراش ، بحيث يغطى المريض تمامًا .. فصحت فى رعب :

ـ « ماكدوجال !.. »

قال عماد والعرق ينهمر منه بسبب الجهد :

ـ « أنت تعرف الكثير .. ألم أقل لك إننا على حق فى استدعائه يا صفوت ؟.. »

ثم التقط بعض الصور للميزان الرقمى ، وفتح جهاز التسجيل وقال :

ـ « الساعة 11 مساء .. لقد بدأنا . الوزن ثابت .. »

* * *

كانت تجربة الجراح الأمريكى ماكدوجال فى بداية القرن العشرين هى التى تركت فى الذهن الغربى فكرة أن الروح وزنها 21 جرامًا ..

كان ماكدوجال جراحًا محترمًا من ماساتشوستس في أوائل القرن العشرين ، حاول أن يخضع الدين للعلم .. وقد آمن بأن الروح تحتل حيزًا من الفراغ ، دعك من أنها خفيفة جدًا .. لهذا تطفو بعد الموت . قام عام 1907 بإجراء تجربته الرهيبة التي ذكرت الناس بجو قصص د. فرانكنشتاين ، حيث قام بوزن ستة محتضرين عن طريق وضعهم على أسِرَّة متصلة بميزان حساس . ولاحظ فارق الوزن قبل وبعد الموت ، الذي افترض أنه وزن الروح ، وقد خيل له أنه 21 جرامًا . أربعة كانوا مرضى درن ، وواحد كان يموت من مضاعفات السكر ، وواحد بسبب مجهول. مزية الموت بالدرن هي أنها ميتة هادئة .. المريض لا يتحرك تقريبًا .. الميتة بطيئة ؛ لذا يكون الأطباء منتظرين للموت قبل ساعات من حدوثه ، وهذا يساعد في التسجيل ..

أجرى تجارب مماثلة على الكلاب ، لكنه لم يلحظ أي اختلاف في الوزن عليها . هكذا افترض أن الروح لها وزن وأن الكلاب لا روح لها .

لا تعتبر هذه التجارب ذات قيمة علمية ما ؛ لأنها غير قابلة للتفسير والتكرار . لكنها استقرت في الوعي الجماهيري الغربي . إن العينة صغيرة جدًا ولا تسمح باستخلاص نتائج إحصائية .. لكنك

لا تستطيع أن تزن ألف محتضر لتأتي بأرقام دقيقة .. هذه تجارب مخالفة للقانون والعرف ؛ لهذا يجريها من يجريها بنفس عجلة وندرة وارتباك الجريمة ..

رأى بعض الأطباء أن العرق الذي يتبخر من الجلد هو السبب ، مع ما يصاحبه من ارتفاع درجة حرارة الدم، بينما الكلاب لا تعرق لأنها تلهث. هذا هو فقدان العرق غير المحسوس insensible perspiration الذي لم يضعه ماكدوجال في الحسبان . قال ماكدوجال في بحثه إنه راعى هذه النقطة وقدر معدل التبخر بجزء من ستين من الأوقية في الدقيقة، بينما المريض فقد ثلاثة أرباع أوقية في ثلاث ثوان. حتى إفراغ المثانة غير وارد لأن البول أو البراز بقي على الفراش محتفظًا بوزنه .

توفي ماكدوجال عام 1920 ، ومن الواضح أنه لم يملك روحًا علمية تجعله يطلب ممن حوله أن يزنوا جسده أثناء الاحتضار .

لم يترك الرجل علامة مهمة في العلم، لكنه ترك علامات على الثقافة الشعبية في الغرب . إن الروح معنى يتحدى الصفات والمقاييس الفيزيائية، وإلا لأمكن أن نقول يومًا ما إن الكبرياء طولها كذا وعرضها كذا، وإن الشجاعة وزنها كذا . دعك من اللا إنسانية الواضحة في هذه التجارب ؛ حيث يتحول إنسان محتضر إلى فأر تجارب .

* * *

الآن وقد وقفتُ أمام هذا المشهد الرهيب ، استعدت كل هذه الذكريات ..

وفهمت لماذا طلبونى ..

فهمت كذلك لماذا اختاروا هذا الوقت العجيب وسط هذه العاصفة .. الحقيقة أن الوقت هو الذى اختارهم .. لقد كانوا ينتظرون لحظة الاحتضار على أحر من الجمر ، فلما جاءت هرعوا يعدون كل شىء ..

تجربة قاسية خائبة ، والأدهى أنها أجريت فعلاً منذ نحو سبعين عامًا .. فما جدوى تكرارها ؟!..

ما الذى يحاولون أن يجدوه ؟.. وما الذى يتوقعون أن يثبتوه ؟

الأغرب أن (عماد) المادى الذى لا يؤمن بشىء ، يجرى تجاريه على فرضية أن الروح لها وزن !.. على الأقل (ماكدوجال) كان متدينًا إلى درجة التعصب ، وقد حاول أن يفرض إيمانه على المنطق العلمى .. لكن كيف يجرى تجارب على الروح من لا يؤمن بها ؟

سمعته يقول :

ـ « لقد بدأ الوزن ينقص .. دوِّن القياس بدقة مع الساعة .. رفعت .. هلا ساعدتنى ؟... لماذا لا ترد ؟.. »

هنا نظر إلىَّ عماد نظرة لم أنسها حتى اليوم ، وقد رأى توترى واشمئزازى فقال :

ـ « أنت رجل علم يا رفعت .. عليك أن تكون كذلك .. دعك من أنه لا يشعر بشىء .. »

قلت من بين أسنانى :

ـ « ومن أدراك ؟!.. وهل تحب أن تحتضر أنت ـ بإذن الله ـ فيحيط بك الأوغاد الفضوليون ليأخذوا مقاييسك ؟.. فلتساعده على نطق الشهادتين لو كان مسلمًا ، أو تأت له بقس لو كان مسيحيًا .. لكن لا تضعه على ميزان كأنه كيلو من اللحم .. »

كنت قد سمعت كلامًا متناثرًا عن (عماد) ، لكنى لم أصدق .. هذا الكلام بلغ مسمع كثيرين فى كليته على كل حال ، وهذا هو ما قصدته بالأعمال غير الأخلاقية .. إهانة البشر ووزن المحتضرين أسوأ ألف مرة من أى شىء آخر قد يكون خطر لك .. ما القيمة الفيزيائية العظمى التى سيحصل عليها بعمل كهذا ؟!

هكذا اندفعت مغادرًا المكان ..

اندفعت أركض تحت المطر المنهمر نحو سيارتى .. هناك وقفت جوارها ورفعت وجهى للسماء تاركًا الماء يغرق وجهى وعويناتى

ويتسرب تحت ياقتى إلى ما تحت الجلد تقريبًا .. أريد أى شىء قادم من السماء ليغسل ما أشعر به ..

لم يلحق بى أحد ، فانطلقت بالسيارة مبتعدًا ..

بالطبع كان صفوت يعتقد يقينًا أننى سأبلغ الشرطة ولسوف يُخرب بيته ، ولعل هذا كان أفضل شىء يمكن أن يحدث لهما . النفس البشرية مقدسة ولا يمكن العبث بها .. لكنى بصراحة لم أستطع تحمل فتح أبواب الجحيم التى ستنفتح فوق رأس هذين الاثنين ..

العجوز كان يحتضر فعلاً .. هما لم يقتلاه ..

لتأت الكارثة من شخص آخر سواى ... أما أنا فخير ما أفعله هو أن أصمت وأبتعد نهائيًا عن هذا المجنون (عماد) ..

وهذا ما كان .. ومن رحمة الله أن الانتقام السماوى جاء بسرعة وتم فصله من الجامعة . ومنذ ذلك الحين لم أسمع عنه إلا أخبارًا متفرقة ، وقابلته مرات محدودة .. أعتقد أنه ممتن لى لأننى لم أملأ الدنيا صراخًا فى تلك الليلة .. كان يتوقع وشاية ولم تحدث ...

سمعت عن تجاربه الغريبة واهتماماته الأغرب فلم أندهش ..
لكنى اليوم أعود له طالبًا رأيه ..

- 4 -

عن قوم الظلال يحكى د. (عماد) فيقول :

- « منذ زمن بعيد يتكلم الناس فى الغرب عن الظلال التى تراها بركن عينك .. هذه الظلال لا تمثل أشخاصًا بالضبط ، لكنها كائنات حية مستقلة حرة الحركة ، وقد استطاع البعض أن يروا لها عيونًا حمراء .. علامة يقترن ظهور هذه الكائنات أو الظواهر برعب شديد وتوجس لدى من يراها . كل الشهود قالوا ذلك ..

يقولون إن هذه الكائنات تتوارى فى الظلام وتمتزج بالظلمة ، فلا تقدر على رؤيتها . أما محاولات رؤيتها صباحًا فتكلل بالفشل غالبًا .. أنت ترى الظل للحظة ثم يختفى بسرعة البرق .. »

قلت له :

- « أنا رأيت تلك العين الحمراء بالتأكيد .. »

لم يعلق وواصل الكلام :

- « تفسيرات كثيرة قيلت حول هذه الظاهرة ، بعضها ما ورائى .. ماذا لو كانت هذه أشباحًا ؟.. هنا فارق مهم ؛ لأن الأشباح كما يحكى من رآها لها شكل بشرى ، وربما تلبس ثيابًا .. بينما قوم

الظلال ظلال غير محددة الشكل .. من المستحيل أن تصف الشكل بالتفصيل أو تقول : « هذا شبح عمى أو هذا شبح زوج خالة زوجتى .. » لكنْ هناك شكل رآه الكثيرون وهو منتشر جدًّا لدى من شاهدوا هذه الظواهر ، وقد اصطلحت المصادر (الفورتية) على تسميته (رجل القبعة) ..

هناك من قال : إنها شياطين ، وهناك من تحدث عن الإسقاط النجمى .. أنت تسمع عن الإسقاط النجمى Astral projection عندما تكون لدى بعض الأشخاص القدرة على أن يغادر وعيهم أجسادهم ليُحلّقوا فى فضاء الغرفة .. ماذا لو كانت هذه الظلال هى ظلال أشخاص يمرون بالتجربة ؟.. هناك من يحلق فى غرفتك بالذات وأنت رأيته لحظة التحليق..

نفس المنطق يحكم فكرة (مسافرى الزمن) .. من الممكن أن يتوصل الناس فى المستقبل إلى ابتكار آلة الزمن . معنى هذا أن عالمنا يعج بهؤلاء الذين جاءوا من الغد ليروا عالمنا .. من الوارد جدًّا أن واحدًا من هؤلاء يراقبنا الآن .. وقد يكون من الممكن أن نراه للحظة كظل عابر .. »

نظرت حولى وشعرت برعب ..

أنا أؤمن أننا لسنا وحدنا فى هذا العالم ، وأن هناك موجودات لا نقدر على رؤيتها كما أننا لا نرى الموجات تحت الحمراء وفوق البنفسجية ، ولا نسمع الموجات الصوتية عالية التردد .. إذن هناك عالم كامل يفوق حواسنا .. برغم هذا تفزعنى هذه الفكرة . أن تتصور أن الغرفة التى تجلس فيها الآن مزدحمة كحافلة فى القاهرة وقت الذروة .. هناك قصة شهيرة لـ (لافكرافت) عن عالم ابتكر جهازًا يقوى الحواس ؛ بحيث يصير بوسعك أن ترى ذلك العالم الخفى ، والنتيجة أن الرجل جن فورًا ..

لقد قابلت هؤلاء السياح القادمين من الغد من قبل ، لكن لا أعتقد أن المكان يعج بهم ، ولا أنهم دفعوا تذاكر غالية ويجلسون صفوفًا الآن يتسلون بمناقشتى مع د . (عماد) وهم يلتهمون الفيشار ..

واصل د . (عماد) الكلام :

ـ « هناك نظريات عن أبعاد موازية لنا .. هناك سكان فى هذه الأبعاد ، ومن حين لآخر يطل أحدهم برأسه من بُعده فيصير مرئيًا لنا .. أى إن هذه الغرفة تتسع لأسرة أخرى لا ترانا ولا نراها .. نحن نتكلم ونتناقش وهم يتكلمون ويتناقشون ، وكلانا لا يرى الآخر ولا يعرف بوجوده .. لكن قد يثقب هذا البعد فى لحظة فترى هؤلاء للحظة .. »

قلت له فى كياسة :

ـ « معظم هذه النظريات أعرفها بالطبع ، لكن ألا ترى أنها تقود إلى الجنون بكفاءة تامة ؟.. »

ـ « لهذا يحسن ألا تتسرب هذه النظريات للجميع .. إنها نظريات للخاصة فقط .. »

ثم فكر حينًا ، وقال وهو يتحسس شاربه العملاق :

ـ « هناك من يتكلم عن زيارات سكان الكواكب الأخرى .. ربما هم قوم لهم مظهر الظلال .. من يدرى ؟.. »

قلت له :

ـ « لكن الأمر بهذا الشكل يفسح الكثير جدًا للخبال والبارانويا .. المصحات العقلية تعج بالمؤمنين بهذه النظريات.. »

ابتسم فى ثقة وقال :

ـ « طبعًا .. هناك تفسير الباريدوليا Pareidolia .. كل صور تقع على أطراف مجال البصر .. كل ما يقع خارج البقعة المركزية الحساسة للعين .. هذه أشياء تعرف العين أنها موجودة لكنها لا تميزها جيدًا .. فماذا يفعل المخ ؟ .. يكمل الصورة من خياله ويتصور أنها وجوه بشر ...

هناك تفسيرات أخرى كثيرة ؛ منها اضطراب الحالة النفسية .. باختصار : الهلاوس .. هناك الحالات الوسط بين النوم واليقظة .. هؤلاء الذين يحلمون بأعين مفتوحة .. شخص يمشى ويبدو أمام الناس يقظًا ، لكنه فى الحقيقة نائم تمامًا .. هكذا يرى بين النوم واليقظة وجوهًا تتبدى فى الظلمة وتزول .. يصحو ليحكى عن (الظلال التى تتربص به) .. »

قلت ، وقد بدا لى الكلام مألوفًا :

ـ « المخدرات لها دور عظيم فى هذا .. »

قال ضاحكًا :

ـ « كلنا نعرف أن الثملين فى الغرب يرون أفيالاً وردية .. لا أعرف لماذا لا يرى الثملون فى مجتمعنا ذات الشىء ..لكن هذا يدل على أن كل هلوسة تنبع من خلفيتك ووجدانك الجمعى . أنت طبيب يا د. رفعت وتعرف أن كل المنشطات السمبثاوية قد تجعلك ترى قوم الظلال .. فى مصر يتعاطون الإفدرين أو حقن الماكستون فورت الذى هو اسم التدليل لمادة (الأمفيتامين Amphetamine) وكلاهما منشط سمبثاوى قوى .. وكلاهما له ذات التأثير قريبًا .. »

انتهى من كلامه ، فراح يعبث فى شاربه منتظرًا رأيى ، فقلت :

ـ « كل هذا جميل .. خلاصة ما تقول : أنه من الطبيعى جدًا أن يلاحقنى ظل .. لكن هذه الظلال تقتل على قدر علمى .. »

ـ « لم يتكلم أحد عن أن قوم الظلال يقتلون .. إنهم يثيرون الرعب فقط .. لا أكثر .. هذا جديد على .. »

ـ « دعك من أن ظلاً يلاحقنى .. أنا واثق من هذا .. جربت أن أعيش فى ضوء ساطع لكنى لم أتحمل أكثر من نصف ساعة .. هذا هو الطريق للجنون .. ربما أنا على حق ، وربما أنا مخبول أو مدمن أفدرين .. لكنى لا أريد فهم الظلال التى تلاحقك ، قدر ما أريد فهم الظلال التى تتخلى عنك .. »

نظر إلىَّ فرأيت فى عينيه تلك النظرة ..

النظرة التى لم أرها منذ عشرين عامًا ...

* * *

ـ 5 ـ

هل أنت جائع ؟.. نعم .. لم أتناول الغداء بعد ..

ها نحن ذان جالسان فى ذلك المطعم الفاخر بالزمالك ، وبرغم تناقض مظهره مع ... ربما تناقض مظهرانا نحن الاثنين مع المكان ، لكن الكل كان يعرفه ، وكان يُحيِّى هذا وذاك فى مرح ..

طلب كمية هائلة من الطعام تناسب حجم شاربيه .. وكان يتكلم فى حرارة وقوة . ثم أخرج من جيبه زجاجة صغيرة فيها مشروب كحولى ، وصب بعضه لنفسه فى كأس صغيرة لأن المكان لا يقدم الخمور ، وعرض على بعضه فهززت رأسى أنْ لا .. كنت أعرف أنه يشرب الكحوليات منذ كنا فى إنجلترا ..

قال لى وهو يعرق بغزارة من نهم الأكل :

ـ « أنت لا تشرب الخمر ، وتصلى ، وتصوم ، كعهدى بك .. أنت مثالى كأبطال القصص ، ولا تنوى أن تتغير .. »

قلت فى فتور :

ـ « لم أر بطل قصة أصلع نحيلاً مريضًا من قبل ، ومعظم الناس مثلى ، لكن لا أحد يزعم أنهم أبطال .. »

- « إذن أنا البطل .. أنا ألعب دور العالم الشرير المجنون فى رواية قوطية .. هل تذكر تلك الليلة ؟.. عيادة (صفوت) ؟.. »

- « ومن يستطيع أن ينسى ؟.. »

قال وهو يعيد الزجاجة لجيبه :

- « أنا أجريت التجربة عشرات المرات .. لن تصدق هذا ، لكنى جربت كثيرًا جدًا .. ونتائج ما عرفته فى ذهنى ، غير قابلة للنشر .. ما من مجلة عالمية أو محلية تنشر أبحاثًا كهذه .. ما توصلت له هو أن الوزن يقل فعلًا لدى الوفاة ، ولا يمكن تفسير هذا بالبخر .. لن أقول مثل مكدوجال إن هذا وزن الروح ؛ فهذا كلام صادم غريب ، لكنى مصر على أن هناك شيئًا ما نفقده عندما نموت ... لا أعرف ما هو .. هذا الشىء يملأ أجسادنا .. أحيانًا يزيد حجمه على حجم أجسادنا ؛ من ثم يبرز للخارج على شكل هالة ..!.. »

انحشرت المكرونة فى فمى حتى اضطررت أن أشرب كوبًا من الماء لأبتلعها ..

هذا الرجل يتكلم عن (بالوظة) لا عن روح . (بالوظة) تحاول أن تضعها فى كيس فلا تنحشر كلها وإنما يبقى بعضها بالخارج ...

لم أكن أعرف وقتها أن من يدعى (دونالد كارينتر) سوف يكرس حياته عام 1998 لدراسة هذه الظاهرة .. هل جن الجميع ؟!

قلت له فى غيظ :

- « تريد القول بأن الروح (تبظ) ! .. »

- « لم أتحدث عن الروح لحظة .. أتحدث عن طاقة غامضة فى أجسادنا .. هذه الطاقة قد تتخذ شكل ظل .. »

- « لكن الظل الفيزيائى معروف ومفهوم .. مكان لا يصله النور فيكشف عن حدود أجسادنا .. »

- « لسبب ما أعتقد أن بوسع تلك الطاقة أن تتخذ شكل ظل .. ثم يصير بوسعها الحركة ، وتصير لها حياة مستقلة .. »

- « يا سلام !.. والظل الفيزيائى المعروف ؟.. »

- « أعتقد أن فقدان هذه الطاقة يؤدى إلى نوع من الشفافية فيختفى الظل .. لاحظ أننا لا نتحدث بلغة فيزيائية ، بل بلغة أقرب للفلسفة .. »

غرست الشوكة فى قطعة من الإسكالوب كأنه علم الولايات المتحدة الذى غرسه أرمسترونج على سطح القمر ، وعقدت أناملى تحت ذقنى وسألت :

ـ « إذن حسب كلامك يمكن ترتيب الأحداث .. هناك أشخاص فقدوا هذه الطاقة أو هذه المادة فى ظروف غامضة .. هكذا لم يعودوا يتركون ظلاً .. وبما أن خروج هذه الطاقة أو المادة يقترن بالموت ، فإنهم ماتوا على الفور .. تحررت هذه الطاقة أو المادة وراحت تجوب المنطقة .. من حين لآخر يراها البعض فيجنون أو تتوقف قلوبهم ذعرًا .. هل هذا ما تقول ؟.. »

جرع ما فى كأسه مرة واحدة ، وشهق كأنه يشرب حمض الكبريتيك ، وقال :

ـ « نعم .. لا أستطيع أن أؤكد كلامى أو أبرهن عليه حاليًا .. لكنى أعتقد أنه صحيح .... »

ثم مد يده ، يعبث بإصبع واحد فى جيب سترته المبقعة أصلاً ، حتى أخرج ورقة مطوية .. فتحها بإصبعين كى لا تتلوث ، ثم راح يقرأ :

ـ « ثمة قصص مماثلة فى أمريكا وإنجلترا وفرنسا .. أساطير عن أشخاص فقدوا ظلهم ثم ماتوا فى اليوم ذاته .. هذه القصص طبعًا لا تنشر فى صحف محترمة ، وإنما فى المجلات المهتمة بالظواهر الفورتية على غرار (الفضائيون خطفونى وأجروا علىّ جراحة ثم أعادونى) .. طبعًا معظم هذه المقالات يكتبها مجانين .

لا توجد تقارير عن أشخاص قتلتهم ظلال ، لكن تذكر أننا لا نرى سوى جثة رجل مات بسكتة قلبية .. ربما كانت الظلال هى المسئولة .. »

ـ « هل تعنى أننا فى عصر الظلال المتحررة ؟.. »

ـ « ربما هو عصر الناس الذين يلاحظون الظلال المتحررة .. لسبب ما أشعر بأن من كانوا قبلنا حمقى لا يلاحظون أى شىء .. تأمل صورة جدك بشاربه المنتصب والطربوش على رأسه والاعتداد الشديد بنفسه .. هل تتصور أن هذا الرجل يمكن أن يلاحظ اختفاء ظله ؟.. »

ثم ابتلع ما فى طبقه وقال :

ـ « لدىّ طريقة لاختبار هذه الفرضية .. سوف نجربها معًا .. »

* * *

- 6 -

فى الحقيقة لا أستطيع القول بأننى موافق على هذا المنطق .. هناك قضيتان أو مقدمتان منطقيتان :

القضية الأولى : فقدان هذه الطاقة يؤدى إلى نوع من الشفافية ؛ مما يجعلك بلا ظل .

القضية الثانية : فقدان هذه الطاقة يقترن بالموت .

هى معادلة بسيطة من الدرجة الأولى .. الاستنتاج المنطقى هو أن الموت يجعل الناس بلا ظل ..

لكن مشاهدات كل يوم تقول العكس ...

لكنى حائر .. لقد رأيت ظلاً يطاردنى .. لا شك فى هذا .. ظلاً بلا صاحب .. دعك من أننى رأيت فعلاً أناسًا بلا ظل .. هذا يجعلنى مستعدًا لتجربة ما يتكلم به هذا الرجل ..

الرجل يحاول أن يربط بين الظل والوعى ، أو الروح التى لايريد أن ينطق باسمها .. هذا غير صحيح طبعًا .. ما من عمود نور يحترم نفسه إلا وله ظل .. ما من تمثال فى ميدان إلا وله ظل .. الظل ظاهرة مادية تمامًا لا يمكن تفسيرها على أى ضوء آخر .

* * *

فى الثالثة بعد منتصف الليل شعرت بظمأ شديد ..

لا تتوقع أننى كنت نائمًا ؛ فأنت تعرفنى وتعرف أن هذه الساعة تمثل الظهيرة بالنسبة إلىَّ ؛ لهذا كنت فى مكتبى أنهى بعض الأوراق العلمية ، ثم نهضت قاصدًا المطبخ ..

ملأت كوبًا بالماء البارد ، وكانت هناك بعض شرائح اللحم المحمر باقية من الغداء ، فدسست واحدة فى فمى على سبيل الشراهة ، برغم أن النقرس انضم إلى قائمة أمراضى التى تحتاج إلى مجلد ضخم .

عدت إلى المكتب المضاء .. المكان الوحيد المضاء فى الشقة كلها ..

هنا رأيت الظل ..

كان ممتدًا على الجدار الشرقى بين مكتبتين .. عملاقًا يبلغ السقف تقريبًا ، وهو يشبه ما رأيته من قبل .. شكل مبهم غير محدد .. تعرف بسهولة أنه ظل إنسان ، لكن من الصعب أن تعرف من هو .. هناك جمرتان تتوهجان فى موضع العينين .. تأثير يشبه النقاط الحمراء التى ترسلها مؤشرات الليزر المستعملة فى المحاضرات ..

لقد دخل المكتب بينما أنا فى المطبخ ..

هذه الظلال تتصرف كالفئران أو الأبارص ..

فى حذر ودون حركات زائدة ، مددت يدى فى جيبى وضغطت على الزر ..

دوى صوت جرس ثم انغلقت الدائرة ...

وفى اللحظة التالية ظهر (عماد) جوارى وهو يحك جسده فوق المنامة .. كان شعره منكوشًا ووجهه مرهقًا ، لكنه راضٍ عما يدور ..

لقد كان نائمًا فى الغرفة الأخرى حسب اتفاقنا .. لا أعرف متى يظهر هذا الظل ؛ لذا عرض على أن يبيت عندى بضعة أيام ..

كانت زيارته مزعجة ووجوده ثقيلاً .. شاربه يثير غيظى كلما رأيته ، كما أنه يأكل كالخنازير ، لكنه مَنحنِى صحبة آدمية أولاً (كان من العسير أن أتزوج لمجرد ألا أصير وحدى) ثم أعد كل شىء للحظة ظهور هذا الظل ..

كان الظل يحاول الفرار الآن ..

اتجه نحو الباب فانثنى بزاوية قائمة على جدارين كعادة الظلال ، لكنه توقف أمام الباب عاجزًا عن اجتيازه ..

عماد قد وضع كشافات الأشعة تحت الحمراء فوق كل باب بالشقة . يعتقد أنها قادرة على حبس تلك الطاقة ؛ فلا تقدر على اختراقها ..

عندما أضغط على الزر فى جيبى يدق الجرس .. ينهض هو حيثما كان ويغلق المحولات .. من ثم تضاء الكشافات فى كل الشقة .. ضوء لا نراه لكن من الواضح أنه فعال جدًا ..

النتيجة هى أن هذا الظل صار حبيسًا الآن فى نطاق من الأشعة تحت الحمراء ، وهو بهذا يتصرف كفأر فعلاً .. فأر وجدناه فى المطبخ فأغلقنا عليه المِصيدة ..

يا له من مشهد جدير بالكوابيس !

الظل يقاوم بجنون .. يستطيل .. ذراعاه تتلمسان الجدران .. يدنو من باب الشرفة ، لكنه لا يرى الكشاف المعلق هناك .. إنه كشاف معلق فوق باب الشرفة ، يجعل المرور عبره مستحيلاً .. وحتى هذه الظلال لا تقدر على عبور الجدران ..

يعود الظل وينتفض ..

نحن فى موقف قوة بلا شك .. لا أعرف نهايته لكنه ممتع ...

قال لى (عماد) وهو يعبر فرجة الباب :

ـ « تعال معى .. »

هل تعنى أننا سنصير فى غرفة واحدة مع هذا الشىء الحبيس ؟

عندما استطاع خالى أن يحبس فأرًا فى المطبخ قرر أن يدخل ليقتله بنفسه .. ما إن دخل حتى تسلق الفأر على ثيابه وقضم أرنبة أنفه ، ثم تسلل داخل ثيابه !.. لا تحبس نفسك مع القط الحبيس أبدًا .. إنها نهايتك ..

برغم هذا دخل عماد وهو يهز كرشه فى ثقة وخيلاء .. جلس خلف المكتب وراح ينظر إلى الظل المرتسم على السقف ..

قال بصوت جهورى :

ـ « هل تسمعنى ؟.. هل تقرأ أفكارى ؟.. »

بالطبع لا تعليق ..

قال عماد :

ـ « سوف تحرك رأسك بمعنى (نعم) ولا تحركها بمعنى (لا) .. فهمت ؟.. »

اهتز الرأس ..

قال عماد :

ـ « هل أنت ظل تلك الأم المقيمة فى الطابق العلوى .. التى توفيت فى شم النسيم ؟.. »

اهتز الرأس ..

ـ « لماذا توفيت المرأة ؟.. » ثم تذكر وحك ذقنه .. « لا . لا تصلح إلا الأسئلة ذات (نعم ولا) .. هل أنت قتلتها ؟.. »

لم يرد الظل ...

ـ « لنقل : إن هذه (لا) .. هل ماتت لأنك غادرتها ؟.. »

هز الظل رأسه ...

ـ « هل أنتم كثيرون ؟.. »

هز الظل رأسه من جديد ..

ـ « هل تريدون بنا شرًا ؟.. »

اهتز الرأس من جديد ، فشعرت بالدم يتجمد فى عروقى ..

* * *

- 7 -

صحت فى جنون :

ـ « عماد .. كف عن السخف .. لو كنت تعتقد أنك تدير محادثة مع ظل فأنت مخطئ .. هذه الاهتزازات ألعاب ضوء لا أكثر .. »

ـ « ضوء لا يتلاعب إلا عندما تسأله ؟!.. ضوء عبقرى هو !.. »

ثم رفع صوته قائلاً :

ـ « أين الآخرون ؟.. »

كدت أقول له إنه ينسى أن الإجابات (نعم / لا) فقط ، لكنى وجدت أن الظل يرسم شيئًا ما .. رفع ذراعيه على شكل ضلعى مثلث وجعل كفيه للسقف ثم أنزلهما .. إنه يستطيل بلا شك ..

لا أفهم المراد .. نظرت إلى (عماد) متسائلاً ، فهز رأسه فى عدم فهم ..

لا أعرف متى ولا كيف وجدت أنه يقف خلفى بثيابه الداخلية ، وهو يواصل ارتداء ثياب الخروج الرثة . بينما ذلك الظل يتحرك فى بطء على جدار آخر ، وقد انكمش ليصير فى حجم الرجل .. شعور غريب كأننا نراقب ثعبانًا حبيسًا ...

سألته فى رعب :

ـ « هل ستذهب ؟!.. »

قال وهو يربط رباط عنقه على طريقة المشنقة كعادته :

ـ « سوف أجلب بعض الأجهزة من دارى .. هناك الكثير من التجارب التى أريد إجراءها على هذا الشىء .. »

فى هذه اللحظة دوى صوت ارتطام ؛ فنظرنا مذعورين ..

لقد طار كتاب كان موضوعًا على المكتب ليسقط على الأرض .. هذا الشىء يملك طاقة تحريك إذن ، وليس مجرد ظهور apparition .. لا شك فى أن غضبه أو ذعره مُهمان لبلوغ هذه النقطة التى تسمح له بالتحريك .. ظل يسقط كتابًا !

أطلق (عماد) سبة بذيئة وهمس :

ـ « هذا يغير الكثير .. »

ـ « هل تعتقد أنه قادر على أن يغلق الكشافات ؟.. »

ـ « لا .. هذه عملية معقدة بما يكفى .. على كل حال أنا لن أتأخر .. »

وسرعان ما كان يغادر الغرفة فلحقت به .. كانت كل أجزاء منامته مبعثرة فى الصالة .. منامة مكونة من 7 أجزاء .. ولا أدرى كيف .. أية منامة أعرفها تتكون من جزأين ، لكن هذا الرجل عبقرى فعلاً ..

أخذ مفاتيح سيارته وغادر الشقة وهو ينصحنى بالحذر ، كأننى يمكن ألا أفعل ..

وسرعان ما وجدت نفسى فى شقة واحدة مع ... مع ظل حبيس ..

ليس شبحًا ... لكنه شىء غريب لا أعرف أى حرف عنه ..

حاولت أن أنسى .. لا يوجد تلفزيون فى هذه الساعة (الرابعة صباحًا فى السبعينات) .. وبالطبع لا يمكن أن أحصل على كتاب ؛ لأن الكتب كلها فى غرفة المكتب ..!.. . معنى هذا أن علىَّ أن أجلس هنا وأقضم أظفارى حتى أصل لعظام الكف .. ولكننى سمعت صوت شعائر صلاة الفجر تتسرب من مسجد قريب ؛ فشعرت براحة نفسية ..

هنا انقطع التيار الكهربى عن الشقة !!

* * *

عزت !

عزت !

لو أنك أعطيت هذه المعلومات إلى جهاز كمبيوتر وطلبت رأيه ، فإنه سيبحث عن المضاعف المشترك بين هذه القصص ..

سيقول لك : إن عزت موجود فى كل قصة ..

(عزت) هو جار تلك السيدة التى توفيت يوم شم النسيم (وأنا كذلك لو أردت الدقة !) ..

(عزت) هو صديق فنان الظلال .. عندما زارنى ذلك الفنان كان يعانى فقدان الظل فعلاً ، فلا يمكنك أن تتهمنى بهذه النقطة !

عزت ..

عزت له دور فى هذه القصص جميعًا ، وليس بوسعى معرفة حجم هذا الدور ، لكنى أعرف يقينًا أنه تم من دون علمه .. لقد تصرف بحماقة فى شىء ما ، وهكذا سبب ما حدث ..

يجب أن أتذكر هذه النقطة فلا أنساها ..

* * *

انقطع التيار الكهربى .....

لقد وضعت كل شىء فى الحسبان ما عدا هذا الجزء ..

لا تنس أن انقطاع التيار الكهربى وارد ويحدث كثيرًا جدًا ..

لا يمكنك أن تتم تجربة فيزيائية ما ، من دون أن تفسد فى آخر خطوة ..

لقد انقطع التيار الكهربى ، وزالت أسوار السجن التى تحيط بهذا الشىء .. إنه الآن حر ..!

أنا فى الظلام لا أعرف أين هو ولا ما ينتويه ، لكنى أعرف يقينًا أنه هنا وأنه غادر محبسه ..

نهضت أترنح باحثًا عن مخرج .. لا أرى أى شىء .. اصطدمت بشىء على الأرض فأصابنى الذعر ، ثم أدركت أنه خُف ذلك الأحمق الذى نزع ثيابه فى كل مكان تقريبًا ..

إنه هنا .. أتكلم عن الظل ...

إنه موجود من خلفى .. من أمامى .. على اليمين .. على اليسار .. فوقى .. تحتى ... إنه ست جهاتى كما يقول العرب ..

إنه غارق وسط الظلام ، كما تغيب سحلية خضراء وسط الأحراش ، أو تغيب سمكة زرقاء فى مياه البحر .. إنه يقف خلفى .. ربما أمامى ..

إنه يرى ذعرى ..

له عينان متقدتان كجمرتين ، لكنه لا يستعملهما الآن ؛ طلبًا للتخفى ...

إنه هنا ...

سوف أجن ...

بالتأكيد سوف أجن ما لم يعد التيار الكهربى ...

صبرًا يا رفعت .. لقد أذن الفجر ولسوف يغمر النور الباهت الأبيض المكان بعد قليل .. فقط تماسك ...

فجأة عم الضوء المكان ..

الضوء الجديد شديد السطوع ، كأنه كان يحتاج فترة الراحة تلك ..

هكذا التقطت أنفاسى .. وهرعت إلى غرفة المكتب لأجد ما توقعته .. لقد رحل طبعًا ..

فتشت الشقة بعناية فلم أجد له أثرًا .. فى كل مرة كنت أصطدم بظلى .. لا بأس .. على الأقل أنا لم أفقد ظلى بعد ..

رن جرس الهاتف فوثبت مترًا فى الهواء ، ثم جريت كى أخرسه قبل أن يتوقف قلبى نهائيًا ..

كما توقعت كان هذا صوت (عماد) .. لقد وصل إلى شقته إذن ..

ـ « عماد .. لقد انقطع التيار الكهربى و ... »

هنا صرخ صرخة طويلة ثقبت مسمعى .. وهتف :

- « اسمعنى !.. لا تضيع الوقت !.. أنا كنت أحمق ..! لا علاقة لهذه الظلال بالأرواح ولا بتلك الطاقة .. كل هذا خطأ !.. إنها كائنات ذات حياة منفصلة تمامًا .. وهى محتشدة فى مكان اسمه (دلتا) .. لا أعرف المزيد .. »

- « وأين أنت ؟.. فى البيت ؟.. »

عاد يصرخ :

- « اخرس !.. لا تضيع الوقت !.. هذه الكائنات ليست مسالمة ولا تكتفى بالظهور .. إنها تعرف كيف تقتل .. كيف تعتصر قلبك حتى يتوقف !.. هذه الظلال ملعونة ولا يوجد سبيل للقضاء عليها .. سوف تقضى على عالمكم وتفنى وجودكم ذاته .. تذكر هذا .. تذكره يا رفعاااااااات !.. »

ابتعد الصوت عن السماعة كثيرًا ...

ودوت صرخته الطويلة المفزعة ..

لا أحد يصرخ بهذا الشكل إلا لو كان ينوى أن يموت بعدها ..

ليس من حقه ....

بالفعل سمعت صوت الارتطام ، ولم يعد هناك من يكلمنى على الجانب الآخر ..

الجزء الرابع

كِتاب الظلال

يحكيه عزت

- 1 -

« لو أمرت القمر لهبط ، ولو أردت أن أوقف النهار لتمهل الليل فوق رأسى .. لو أردت أن أبحر فى البحر فلا حاجة بى إلى قارب .. ولو أردت أن أحلق فلا وزن لى .. »

* * *

للمرة الأولى أزور الولايات المتحدة ، وكنت مدعوًا بالطبع إلى مؤتمر للفنانين التشكيليين .. أى إننى ذهبت على حساب وزارة الثقافة المصرية ..

كنت متأهبًا لأن أصرخ وأشهق وأنبهر لدى نزولى من الطائرة ، لكن البلاد بدت لى مخيبة للأمل نوعًا .. حديثة جدًا .. باردة جدًا .. تجارية جدًا .. ليس لها ذات الطابع القديم المحبب لأوروبا مثلاً .. ليست غريبة فى كل شىء كاليابان التى زرتها منذ خمسة أعوام .. فى الولايات المتحدة إما أن تتسوق وإما أن ترتاد البارات ، وهذا ليس شأنى ، وإما أن تجد البلاد مملة تلفظك بشكل ما ..

كنت أقيم فى (سياتل) على بعد خطوات من دار المؤتمر ، فكنت أقضى أكثر يومى هناك ثم أجوب المدينة ليلاً ...

تعرفت فنانة تشكيلية أمريكية من المدينة نفسها ، تدعى (روزالين جيرث) ، وقبل أن يذهب بك الخيال بعيدًا أقول لك : إنها أقرب إلى رجل امتلأ وجهه بالتجاعيد ، ولها شعر ثائر فى كل اتجاه ، وتدخن كأنها دبابة محترقة .. لم أر أحدًا يدخن بهذا الشكل سوى (رفعت إسماعيل) ، وإن كان هو أكثر رقة وأنوثة منها ..

هى من طراز الفنان الأمريكى متوسط الموهبة والنجاح .. مطلقة .. ضائعة تمامًا .. ذات ثقافة ماركسية متخبطة ؛ لأنها لم تقرأ كتابًا واحدًا لنهايته .. تتعاطى المخدرات ، ومصابة بصداع مزمن ، ولسوف تنتحر يومًا ما بالتأكيد ..

روزالين مالت إلىَّ كثيرًا ، ولا أجرؤ على قول : إنها أحبتنى ، لكن ربما كان شكلى المريض عنصر جاذبية بالنسبة لها ..

إنجليزيتى سيئة جدًا .. أعرف هذا ، وقد سخر منى رفعت مرارًا بسببها .. هذا الوغد يتكلم الإنجليزية كأحد أبنائها ، وكان يقول لى : لا تتعب نفسك ، وتكلم العربية .. فهى أدنى إلى فهم الغربيين من إنجليزيتك هذه . لكنها ـ إنجليزيتى ـ مفهومة لهم على كل حال ، دعك من أننى لاحظت أن الغربيين يجعلون كلامهم أبطأ وأسهل تلقائيًا عندما يكلمون من هو مثلى ..

أعتقد أن (روزالين) كانت خير صديق لى فى فترة المؤتمر ، وكانت من ماساتشوستس ، من أسرة متدينة ، لكنها تركت عالمها الحميم ، وراحت تجوب أمريكا بحثًا عن المتاعب ..

كم من مرة راحت تسألنى عن ديانتى وشعائرها .. قالت لى إنها مهتمة بالأديان المقارنة ..

حكيت لها عن صديقى غريب الأطوار رفعت .. لو أنها قابلت هذا الرجل لتزوجته على الفور ، فهو يعرف كل ما من شأنه أن يجعل الحياة مثيرة معها ...

إنها تفتقر إلى الهدف .. لا يوجد غذاء روحىَ حقيقى ؛ لهذا تبحث عن أى وهم روحى .. سراب روحى ...

أعتقد أن هذا شأن أمريكيين كثيرين .. المرء هناك إما أن يكون بروتستنتيًا شديد التعصب وإما بلا دين على الإطلاق ويختلق لنفسه دينًا ...

كان هذا عندما كنت معها فى ذلك المرسم الخاص بها ..

إنها ترسم لوحات شنيعة غريبة .. أسلوب متقلب يقلد (مونش Munch) نوعًا فى لوحة (الصرخة) ، لكن من دون أصالة .. أنت تعرف لوحة الصرخة ، التى تجعلك توشك على

سماعها .. يقال : إن هذه اللوحة تحرك شيئًا فى نفسية كل من يراها ..

كانت تحاول تقليدها ، كما قلت لك .. ولم تكن موفقة جدًا ..

كانت هناك لوحة مشوهة غريبة ، اكتشفتُ أنها تمثل وجهى !.. لقد قررتَ أن ترسمنى إذن ...

كانت تستعمل طريقة غريبة للرسم ، فهى تضع أرضية لونية ، وتنتظر حتى تجف ، ثم تدهنها بطبقة سميكة من اللون الأسود ، ثم تبدأ الكشط بسكين ..

هكذا يبدو الرسم كأنه اسكتش سريع ، لكنه مرسوم بقلم يتغير لونه فى كل لحظة .. وهذا يعطى تأثيرًا مبهرًا للحظة الأولى ، قبل أن تكتشف أن الأمر لا يستحق ..

سألتنى وهى تنفث دخان سيجارة :

ـ « ما رأيك ؟.. »

ـ « وهل يمكن وصف العبقرية بكلمات ؟! »

أنا لا أريد أن أخسرها لهذا .. بعض الكذب الأبيض لن يضر أحدًا ..

قالت فى خبث :

ـ « أنت تكذب أيها الخنزير !.. »

ـ « ربما أنا خنزير ، لكنى لا أكذب »

نفثت المزيد من دخان السيجارة ..لا.. لن أقول لها إننى أحبها أبدًا ، برغم أننى أعرف أنها تتوقع منى هذا .. هذه لن تدخل نطاق المجاملات ، بل هى فى نطاق الكذب الصريح الذى يشبه الانتحار ..

إن أيام المؤتمر سوف تنتهى .. عندها سيكون علىَّ أن أفر من هذه المجنونة ..

كيف تفر بعد ما تصارحها بحبك ؟.. خاصة وأنت لا تميل إليها على الإطلاق ؟!

مدت يدها وراحت تكشط المزيد من اللون الأسود عن لوحتى إياها ...

لاحظت أن المدية شكلها غريب جدًا ، وأن مقبضها أسود لامع .. هذه مدية مخصصة لغرض آخر لا أعرفه بالضبط ..

سألتها :

ـ « ما نوعية هذه المدية ؟.. »

قالت ولفافة التبغ فى فمها ، ومن دون أن تنظر إلىَّ :

ـ « أثامى athame ..(*) »

أثامى !.. هكذا صارت الأمور مفهومة ..

عدت أسألها :

ـ « أثامى ؟.. هل لهذا معنى ما ؟ »

قالت دون أن تنظر إلىَّ :

ـ « هى مُدْية طقسية تستخدم فى عدة أغراض .. الساحرات يستعملنها لتوجيه الطاقة نحو هدف ما .. يستعملنها لرسم الدوائر السحرية .. يستعملنها لطقوس الزواج وافتتاح مراسم السحر .. يستعملنها كى تدلهن على الجنوب .. »

ساحرات ؟!

كيف فاتنى أن ملامح (روزالين) هذه هى ملامح ساحرة فعلاً ؟!

(★) هكذا تنطق فعلاً ..

- 2 -

قالت لى : إن المقبض أسود ؛ لأنه يختزن الطاقة النفسية .. هى تستخدمها فى الرسم كى تبعث فى الرسوم شيئًا خاصًا ..

- « لا يمكن إهداء الأثامى لأن التقاليد تقول : إنها (تقطع) العلاقات .. »

- « إذن كيف حصلتِ عليها ؟ »

- « اشتريتها .. »

سألتها عن علاقتها بالسحر ، فقالت :

- « أنا من كهنة الويكا Wicca .. هل تعرف ما هى ؟ »

- « لا أعرف .. »

تنهدت وأشعلت لفافة تبغ أخرى ، وقالت وهى تستند إلى ركبتها ، وقد وضعت قدمها على مقعد عال :

- « هذه محاولة لإعادة الأديان الوثنية القديمة وممارسات السحر التى قضت عليها المسيحية . لقد بدأت فى إنجلترا على يد من يدعى (جاردنر) ، وقد شرح طقوسها فى كتاب يدعى (مهنة السحر اليوم) .. كان هذا عام 1954 أى منذ عشرين

عامًا تقريبًا .. إن الكهانة لها درجات عدة وتمر بعدة اختبارات .. الدرجة الثالثة تمنحك لقب (كاهن أعلى) .. هذه لم أبلغها بعد .. يوجد نحو 134 ألفًا من ممارسى هذه العقيدة فى الولايات المتحدة وحدها .. »

نظرت إليها فى حيرة ..

على قدر علمى لم ألق ساحرة فى حياتى .. لو كان رفعت الأحمق هنا !

الأظرف أنها كاهنة كذلك .. ومن تعبدين يا آنسة (روزالين) ما دمت لا تؤمنين بدين سماوى ؟

قالت :

- « لما كان هذا النوع من السحر قد نشأ فى إنجلترا ، فهو يعبد آلهة إنجلترا القدامى .. غالبًا يلخصهم فى إله وإلهة .. على كل حال هناك عقيدة أخلاقية أساسية هنا هى ... »

ونظرت إلىَّ فى سخرية ، ولمعت عيناها وقالت :

- « (إن كان لا يؤذى فأنت حر فى عمله) .. هناك 161 قانونًا وضعها (جاردنر) ، لكنها تتلخص فى هذه المقولة .. »

ثم قالت لى وهى تنظر فى عينى :

ـ « غدًا يكتمل القمر .. هناك ثمانية أعياد لنا تدور مع عجلة العام . العيد الذى نعقده غدًا يدعى (إسبات) .. وسوف أكون هناك طبعًا .. هل ترغب فى أن تجرب ؟.. »

قلت فى توجس :

ـ « أجرب ماذا ؟! »

ـ « ترى هذه الخبرة الجديدة .. لو راق لك الأمر يمكنك أن تنضم إلينا .. لكن هذا يحتاج إلى عام قبل أن يتم تنصيبك ! »

لو كنت هنا يا رفعت العجوز ، لتحمست على سبيل التجربة .

لكنك لست هنا ، والحقيقة أن الفضول حركنى بشدة لمعرفة ما يقوم به هؤلاء .. طبعًا لا مجال للكلام عن التنصيب والانضمام إليهم ، لكنى أريد أن أرى هذه التجربة الغريبة : احتفال وثنى للساحرات فى القرن العشرين .. أنا رأيت فيلم (الرجل الخيرزان) ، وبدا لى كل هذا غريبًا جدًا .. غريبًا ومثيرًا ..

لهذا قبلت ..

* * *

كانت رحلة شاقة بالسيارة إلى تلك البقعة الخالية ، لكنى عرفت أن طقوس الويكا لم تعد سرًا ، بل الكل يعرف أن ساحرات الويكا يجتمعن هناك .. لقد مر زمن طويل على الحقبة التى كانوا يحرقون فيها هؤلاء . هناك سيارات شرطة تنظم المرور ، وهناك لافتات ومتاجر تبيع التذكارات ، وهناك مهرجان عام ، وبعض السياح الفضوليين .. باختصار لم يبق إلا بعض المجاذيب ليتحول المشهد إلى أى مولد عندنا فى مصر . فى أمريكا يمكن لأى واحد أن يعتقد بأى شىء .. فقط بشرط ألا يحدث ضجيجًا أو يعرقل المرور ..

كان القمر الساطع يغمر المكان بضوئه البارد الرهيب ..

وخطر لى أن الطقوس مهمة جدًا لهذه الأمور .. الطقوس تجعل الأمر يبدو ضخمًا مهمًّا حقيقيًا .. لو انتزعت كل هذه الطقوس لأدركت أن هؤلاء مجموعة من المخابيل يسلون وقتهم ..

كانت (روزالين) تلبس ثوبًا أبيض طويلاً ، زادها قبحًا ، وحمدت الله على أنهم لا يتجردون من الثياب لهذه الطقوس ، كما كان يحدث من قبل .. لو حدث هذا لوجدت نفسى أختنق بين مشاعر الحرج والاشمئزاز ، خاصة وأن الموجودات كن قبيحات جدًا .. كما تعرف هناك فى ذهننا صورتان جاهزتان للساحرات :

الساحرة الشمطاء ذات المكنسة والدمل على أنفها ، والساحرة الغامضة الفاتنة سوداء الثياب والشعر والعينين ، والتى تجعل الرجال بلهاء . كل الموجودات كن من الطراز الأول على كل حال ..

تقدمتْ نحو الأخريات وحيَّتهن بعبارات من طراز :

ـ « التحية للأخت (إليانور) .. »

ـ « التحية للأخت (روزالين) .. »

هناك دائرة واسعة من نحو 13 ساحرة .. وعرفت أن هذا هو العدد المفضل للجماعة ، فإذا زاد العدد عن ذلك تكونت جماعة جديدة . يقفن بحيث ترفع الواحدة يديها لأعلى وتوجه الكفين للسماء ، لتبدو كلها على شكل حرف Y .. هكذا يعتقدن أن إلهة القمر تقف ..

(جاردنر) هو الذى اخترع هذه الديانة بالكامل ، وإنْ زعم أنه أعاد إحياء التقاليد الوثنية التى قضت عليها المسيحية .. عندما قرأت عن الويكا فيما بعد عرفت أنه لفق الكثير جدًا من خياله الخاص ..

هناك تعويذة قديمة لهن تقول :

ـ « لو أمرت القمر لهبط ، ولو أردت أن أوقف النهار لتمهل الليل فوق رأسى .. لو أردت أن أبحر فى البحر فلا حاجة بى إلى قارب .. ولو أردت أن أحلق فلا وزن لى .. »

هذه ثقة زائدة بالنفس .. يبدو أن الواحدة منهن تعتقد أنها سوبرمان .. أين ذهبت هذه المواهب العظمى إذن بينما (روزالين) فتاة متوسطة المستوى مكتئبة تتعاطى المخدرات ؟!

لماذا لم تقدها هذه المواهب إلى السلام النفسى ؟!...

هكذا وقفن يرددن كلامًا لا أفهمه .. ربما كان بالإنجليزية ، لكنها إنجليزية سريعة جدًا لا أستطيع متابعتها قطعًا ...

هذا يبدأ مثيرًا ، ثم يصير مملاً بعد ربع ساعة . للأسف لن يبدأن فى ذبح بعضهن على سبيل كسر الملل .. لو حدث هذا لاستمتعت كثيرًا ..

فيما بعد ، قالت لى (روزالين) إن علىَّ لو كنت متحمسًا أن أقضى عامًا ويومًا فى حضور الاجتماعات وفى دراسة (فكر) الجماعة ، قبل أن يسمح لى بأن أكون واحدًا من الويكا ...

(نحو 134 ألفًا من ممارسى هذه العقيدة فى الولايات المتحدة وحدها) .. لقد جن الجميع ..

عندما عادت لى بعد ساعة كان رأسى مزدحمًا بالأسئلة ، وخاصة ما يتعلق بكتاب الظلال ..

* * *

- 3 -

كان هذا الكتاب موضوعًا فى مكان خاص فى دارها .. هناك ما يشبه (الكونسول) على منضدة .. وحوله الشموع والستائر .. الشموع مهمة جدًا وحولها كلام كثير ، لدى هؤلاء القوم ، دعك من أهمية الخنجر ذى المقبض الأسود الذى عرفت أن اسمه (أثامى) . هذا المكان شىء قريب جدًا من المحراب ..

أثار هذا فضولى بشدة ، وخشيت أن ألمسه حتى لا يتضح أن من يلمس كتاب الظلال هذا دنس يستحق الموت ، أو شىء من هذا الهراء . وقد سألتها عنه فى اليوم التالى فأخبرتنى أنه كتاب تعاويذ خاص بهم ..

ـ « لكن الكتاب ليس ثابتًا .. فى الواقع لدى كل ساحرة كتاب الظلال الخاص بها ، ويحوى ما يناسبها هى .. »

ـ « هل هو يماثل كتاب (تحوت) و(نيكرونوميكون) وما إلى ذلك ؟ »

ـ « قلت لك : إنه ليس ثابتًا .. إنه ككتاب الطهى لدى جدتى .. تحفظ فيه الوصفات التى جربتها هى .. الأصل كتبه (جاردنر) عن السنسكريتية ، لكنه سمح للجميع بالتعديل والإضافة .. لكن الحذف ممنوع .. لهذا هناك آلاف النسخ منه »

ثم قالت فى انتصار :

ـ « فى عهد الحرية هذا ، صار بوسع الساحرة أن تدون تعويذاتها .. فى الماضى كانت هذه التعليمات تُنقل من فم لفم ؛ لأن العثور عليها يعنى الحرق .. »

سألتها :

ـ « ولماذا أطلقتم عليه اسم (كتاب الظلال) ؟ »

ـ « العقيدة السنسكريتية كانت تعتمد بشدة على طول الظل الذى يسقط منك .. هذه أمور معقدة يصعب شرحها .. »

ـ « هل تنوون طباعته ؟.. سوف يبيع كثيرًا جدًا ! »

قالت فى حزم وهى تهز شعرها المنكوش :

ـ « لا .. كتاب الظلال لا ينسخ أبدًا ، وإنما يتم نقله كلمة كلمة .. هذه هى تعليمات (جاردنر)... »

سمعت من قبل عن كثير من هذه النصوص التى يحرم نسخها .. كأنه لابد أن تتحطم يدك فى محاولة النسخ كى تثبت أنك مخلص ..

لابد أن عملية الإعداد لمدة سنة تلك ، تتضمن نسخ مئات الصفحات ..

* * *

كانت تضع مفتاح دارها تحت (مشاية) أمام الباب ، كما علمتنى .. تتعامل بثقة كأنه لا يوجد لصوص هنا ...

لما قرعت الباب عدة مرات لم أجدها .. هكذا فتحت ودخلت ، وكنت أعرف أن هذا لن يثير غضبها .. هى سمحت لى بذلك أكثر من مرة ..

فتحت جهاز التلفزيون وجلست أمامه . لقد انتهت فترة المؤتمر وسيكون على أن أعد حاجياتى للرحيل غدًا .. الحقيقة أننى بدأت أحب هذه البلاد ، لكن هذا جاء متأخرًا جدًا وأنا على وشك الرحيل . يعلم الله وحده متى أعود ثانية ..

نهضت ووقفت أمام ذلك المحراب .. ورحت أتأمل الشموع والخنجر ..

رحت أقلب صفحات ذلك الكتاب الغريب ، والحقيقة أننى كنت أقاوم رغبة شديدة فى أن أسرقه .. هذا شىء سيروق لرفعت ، أو سيتظاهر بأنه لا يثير اهتمامه لكنه سيروق له ، لكنى بالطبع لن أخون الأمانة حتى مع ساحرة .. خاصة أنها تعلق أهمية بالغة على هذا الشىء ..

فى الصفحة الأولى وجدت رسمًا زخرفيًا جميلاً جدًا .. قطعة من الفن الرفيع ، وإن كان له طابع كتب القرون الوسطى المخيف .. لابد أن كتاب (مطرقة الساحرات) يشبه هذا . هناك عبارة تقول :

**B tjohmf mjof gspn uif CPPL PG TIBEPXT
Uipv tibu dpqz opu , mftu uif TIBEPXT tibu
efbsu uif mjwjoh, spbn uif fbsui mjlf uif
voefbd , uhbu jt uif ljohepn pg TIBEPXT .
ofbs Ejbob uifz tibmu cf**

وهى كلمات بليغة جدًا كما ترى ، خاصة مع الخط القوطى الذى يحتاج إلى ربع ساعة لقراءته ..

ثم إطار كأنه إطار مرآة يحيط بها ، بينما تمسك بأطراف الإطار شياطين صغيرة ضاحكة ، وعلى الأرض يقف كائن يشبه (بان) إله المراعى عند الإغريق الذى صار فيما بعد رمزًا للشيطان ، وهو ينظر إلى اللوح المعلق فى رضًا .. بينما تحلق فى السماء سحب وأرواح هائمة معذبة ..

هذا رسم باليد ؟!.. مستحيل .. لا أصدق .. لا يمكن تصور قدر الجهد المبذول فى شىء كهذا .. ونظرت حولى .. لا أحد يرانى ...

أخرجت الكاميرا التى أحتفظ بها فى حقيبتى ، وهى تسمح بالتقاط صور ممتازة قريبة .. لقد جربتها بنفسى مع أعمال فنية كثيرة ، خاصة أنه ليس علىَّ أن أقلق من انعكاس الفلاش لأنه لا يوجد زجاج هنا ، وقد قمت بضبط العدسة والتقطت عدة صور لتلك اللوحة ، ثم قلبت بضع صفحات من الكتاب والتقطت صورها .. التقطت كذلك عدة صور للمحراب .. هذه خبرة يجب ألا أنساها ..

أعدت كل شىء لمكانه ، وجلست أمام التلفزيون أتابع العرض ..

ما هذا الذى أسمعه من غرفة النوم ؟!

* * *

- 4 -

صوت الأنين هذا ..

هُرِعْتُ إلى غرفة النوم الموارِبة وفتحت الباب ..

على الفراش وجدت شيئًا هائلاً مثل (كينج كونج) ، واستغرقت لحظات حتى أفهم أنه (روزالين) راقدة تئن .. لم أدر من قبل كم هى ضخمة مرعبة .. إذن هى كانت فى الشقة منذ دققت الباب مرارًا .. فلماذا لم تفتح ؟

باقى القصة كان واضحًا .. هناك زجاجة بها مشروب أصفر ، ويسكى على الأرجح ، وهناك زجاجة (كلورال هيدرات) برائحته المميزة .. المنوم الذى كنت أتعاطاه أحيانًا ..

أنا لا أملك خبرة طبية ، لكنى أعرف أن تعاطى الكحول مع الكلورال هو وسيلة انتحار لا تفشل ، ولا أعنى بهذا أنها انتحرت ، لكنه خطأ شائع فى الغرب .. غالبًا لا يفيقون من هذه الغيبوبة ..

بالفعل كانت تصدر شخيرًا طويلاً ، وأدركت من لونها أنها لا تتنفس جيدًا ..

كنت فى حالة سيئة أنا نفسى ؛ فأنا لا أتحمل أى نوع من الانفعال ، وغدتى فوق الكلوية لا تعمل كما يجب .. من دون هرمون الكورتيزون الذى تفرزه لن أتحمل كل هذا الانفعال ..

هرعت إلى حقيبتى التى تحوى طبعًا صيدلية صغيرة ، وملأت المحقن بالكورتيزون ، وحقنت نفسى أولاً ..

ثم هرعت إلى جهاز الهاتف وطلبت 911 .. هذه هى معلوماتى عن الولايات المتحدة ..

ليس انتحارًا .. أعرف هذا يقينًا ..

إنه خواء روحى دفعها إلى أن تغرق نفسها فى الخمر والمهدئات ، وهو ما يدلك على أن هذه الويكا لا تساعد أتباعها كثيرًا على .. « لو أمرت القمر لهبط ، ولو أردت أن أوقف النهار لتمهل الليل فوق رأسى .. لو أردت أن أبحر فى البحر فلا حاجة بى إلى قارب .. ولو أردت أن أحلق فلا وزن لى .. » إنها لا تمنحهم القدرة على الحياة ذاتها ..

جاءت سيارة الإسعاف ، وركبت معهم وأنا لا أعرف ما سأفعله بعد ذلك . روزالين كانت هى دليلى الوحيد فى تلك البلاد .. حتى العودة من المستشفى تبدو عسيرة من دونها ..

ظللت ساهرًا هناك بينما هم يحاولون جاهدين إعادتها إلى الحياة ..

فى النهاية ، فى ساعات الصباح الأولى ظهر لى د. (سام) وهو رجل متأنق حريص على أن يبدو رائعًا ، وقد صافحنى حيث جلست فى الاستراحة ، وقال لى :

ـ « أوه بيه .. لو لم تكن أنت هناك لفقدناها .. سوف تنجو .. »

قلت وأنا اشعر بأننى غير متزن بسبب السهر :

ـ « لولا صوت أنينها لبقيت أشاهد التلفزيون ، وهى تموت على بعد خطوات منى .. »

ـ « أوه بيه .. لكنى أرجو أن تؤكد لى أن هذا لم يكن انتحارًا .. »

قلت له مرتبكًا :

ـ « معلوماتى أن هذا ليس انتحارًا ، لكن ربما كنت مخطئًا .. »

نظر إلىّ لحظة فى (ألاطة) ولسان حاله يقول : أيها الكذاب الخسيس !.. ثم رأى أن هذا ليس من شأنه .. فقال:

ـ « أوه بيه ...إنها قد أفاقت .. يمكنك أن تراها ، ولكن لفترة وجيزة .. »

هكذا دخلت غرفة العناية المركزة ، حيث كانت (روزالين) راقدة وهناك ألف خرطوم يخرج منها حتى صارت كالأخطبوط ..

دنوت منها فى حذر ..

لم يكن قناع الأكسجين على وجهها ، ويبدو أنها عادت تتنفس بانتظام ..

فى هذه اللحظة لم تبد لى قبيحة عل الإطلاق .. أشفقت عليها كثيرًا .. الساحرة الكئيبة الفاشلة .. هذا عنوان غير مطروق ..

قلت لها :

ـ « أعتقد أنك لم تفعلى هذا عمدًا .. »

بللت شفتيها بلسانها وقالت :

ـ « لم أفعله عمدًا .. لكنه كذلك لم يكن خطأ ! .. »

ـ « هذا لغز إذن !.. »

ـ « هو كذلك .. شعرت بقوة تدفعنى إلى أن آخذ جرعة من الكلورال ثم أشرب .. لا أعرف السبب .. فعلت هذا وأنا أعرف أنه قاتل .. »

ـ « إذن هو التعمد .. »

ـ « بل هو ليس كذلك .. إنه لغز .. كأن قُوى أقوى منى أصدرت علىَّ حكم الإعدام .. كما حدث مع سقراط .. »

فكرت حينًا ثم قلت :

ـ « أعتقد أن قصة الويكا هذه سوف تقودك إلى الجنون حتمًا .. »

مدت يدها القوية المعروقة تتلمس يدى ، ثم قالت :

ـ « إنه الصباح .. أعتقد أن موعد سفرك قد حان .. »

ـ « هذا أسوأ وقت أتركك فيه .. »

ـ « أنت قمت بما ينبغى عليك .. سوف أجتاز هذه المحنة .. لا تقلق .. »

ودعتها فى حرارة برغم كل شىء ..

أشعر بأننى لن أراها ثانية أبدًا .. لن أسمع عنها ثانية .. على الأرجح لن تعيش طويلاً .. لكن لم يعد فى الوقت متسع .. يجب أن أحزم حقائبى وأتأهب للذهاب إلى المطار .. معنى هذا أن وقتى ضيق فعلاً ...

وعندما اتجهت إلى باب الغرفة سمعتها تقول بصوت مسموع :

ـ « احترس من الظلال ! »

لم أفهم معنى هذه العبارة ولا دخلها فى الموقف ...

على الأرجح لم يستعد جهازها العصبى تماسكه بعدُ ...

* * *

- 5 -

مصر من جديد ..

تلك هى المشكلة .. أنت تعجب بالخارج لكنك لا تطيق الابتعاد عن هذا البلد . لابد أن من يهاجرون يملكون نفسية لا أفهمها .. إما أن مصر كانت قاسية عليهم أكثر من اللازم وإما أنهم قساة أكثر من اللازم .. لا أعرف ..

ذكريات كثيرة أحملها معى ، وحشد من الصور .. طبعًا كان أول ما قمت به هو أن طبعت ما التقطته من صور لأغيظ به الناس ..

ذهبت إلى رفعت إسماعيل العجوز ، فوجدته لم يمت كالعادة .. وقد أمضينا ساعات لا بأس بها .. إنه يمقت الولايات المتحدة مثلى ، لكنه احتفظ بهذا المقت بينما تخليت أنا عنه ..

حكيت له عن ساحرة الويكا ، لكنى لم أدخل فى تفاصيل ؛ لأن الذكرى باتت أليمة بالنسبة إلىَّ .. منظرها وهى راقدة فى العناية المركزة لا يريحنى جدًا .. فقط حكيت له أننى صادقت ساحرة ويكا ، فقال إنه لا يعرف الكثير عن هذا المذهب .. جماعات السحر الوثنى تملأ أوروبا على كل حال .. فلن يضيف الأمريكان

شيئًا إلا التقليد .. هم ـ كما قال ـ يقلدون الشامانية والصوفية والسحرة ، ويلبسون الجلباب والشيلوار ، ويأكلون الكباب والسوشى .. باختصار : هم يقلدون كل الشعوب بلا أصالة ..

قال لى :

ـ « فكرة أمريكا أصلاً هى أخذ أفضل كل شىء من كل بلد آخر .. أفضل شىء أو أطرف شىء .. ثم تذويب هذا كله فى بوتقة واحدة كبيرة .. الأمريكى عندما يشرب الساكى أو يأكل التورتيا Tortilla أو يلبس الجلباب يعتقد أنه صار يابانيًا أو مكسيكيًا أو عربيًا أكثر من هؤلاء القوم أنفسهم . هذا يضايقنى ولا يشعرنى براحة .. »

لكنه قال إنه يملك مدية الأثامى تلك .. أهداها إليه نصاب يهودى فى الولايات المتحدة ، وهو لا يذكر أين هى ولا أين وضعها .. لم يعرف قط أن لها أية أهمية .

احتجت إلى أسبوع حتى أستعيد توازنى .. ثم رحت أستعيد ذكرياتى مع الصور . طبعًا وجدت تلك الصور التى التقطتها لمقدمة كتاب الظلال بنقوشه العجيبة . وجدتها جميلة جدًا ، فأهديت واحدة منها لصديق لى يدعى (هانى فهمى) ، وهو يدير مسرحًا لخيال الظل ، وله اهتمامات فنية واضحة ..

سألنى فى شغف عن محتوى هذه الصورة ، فقلت :

ـ « مقدمة كتاب سحر وثنى .. »

ـ « أعوذ بالله !.. »

ـ « بصرف النظر عن محتواه ، لا تنكر أن الصورة جميلة متقنة ، والأهم أنها مرسومة باليد .. كل نسخة من هذا الكتاب منسوخة باليد . »

وضع الصورة فى جيبه وهز رأسه ..

هذه هدية عجيبة لا يستسيغها كثيرًا ، خاصة وهو خاطب ، وفى ضائقة مالية يمر بها كل من يقدم على الزواج .. ليس ممن يتذوقون أن أذهب إلى أمريكا وأعود له بصورة فوتوغرافية .. كأنه كان يتوقع أن أعود له بغرفة نوم أو أدوات مطبخ ..

ذكرونى أن أهدى صورة لرفعت إسماعيل .. فربما يفهم شيئًا من تلك النقوش ..

* * *

حدثت فى عالمى القريب أحداث مؤسفة ..

لقد توفيت جارة لنا لديها ابنان ؛ أحدهما طالب جامعة ، وله أخت طالبة فى الصف الثانى الثانوى . وبعد فترة وجيزة توفى الأب نفسه .. إنها مأساة حقيقية ..

يبدو أن رفعت إسماعيل يتردد كثيرًا على هذين اليتيمين ، مدفوعًا بمزيج من الشفقة والمسئولية .. هذا دور لا يناسبه ، ولا تملك إلا أن تضحك فى سرك عندما تتخيل هذا الخفاش العجوز سيئ الطباع وهو يتظاهر بالحنان ..

لم تكن هذه نهاية مصائبى ..

لقد فقدت (هانى) .. فنان الظلال هذا الذى حكيت لك عنه ..

كان ملهوفًا يرغب فى أن يتصل برفعت إسماعيل . لا أعرف السبب ، لكنى رتبت لهما لقاء معًا ، ثم ابتعدت عن الأحداث لأنى خمنت أنه يريد أن يكون وحده مع صديقى غريب الأطوار ..

من الغريب أنَّ نحس رفعت يعمل بشكل فعال ؛ لأن الرجل عاد لداره ومات بنوبة قلبية . هو صغير السن ، ويصعب أن نجد تفسيرًا واضحًا لموته ..

تلقيت خطابًا من روزالين ، وهى بصحة طيبة .. مؤقتًا .. أعرف أنها ستموت ذات يوم ؛ بجرعة زائدة من المخدرات .. اعتدت أن أشم رائحة انتحار (ربما عن دون وعى) فى موضوعات الجرعات الزائدة هذه ..

أشياء غريبة تحدث .. يبدو أننى أصبت بالخبال بعد تجربتى مع الويكا تلك ..

أحيانًا أرى ظلالاً تتحرك فى مرسمى ليلاً .. وعندما أدخل أرى ذات الظلال ، لكن بلا شخص يبعثها .. كأنها ظلال حرة لو أردت رأيى ..

إن أعصابى مرهقة كما هو واضح ..

عندما أعود إلى الولايات المتحدة فى المرة القادمة ، علىَّ ألا أزور أى اجتماع للويكا ..

هذه أشياء لا تناسبنى ، لكنها خلقت لرفعت إسماعيل ..

سوف يحضر هذه الاجتماعات ويجلب معه - دون أن يعرف - لعنة ما ، تحل بهذا البلد المسالم .. هكذا تسير الأمور دائمًا ..

أنا بحاجة إلى أيام فى الإسكندرية ..

يجب أن أرتب هذا فى أقرب فرصة ..

* * *

الجزء الخامس

حيث تنتظر الظلال

يحكيه رفعت إسماعيل

- 1 -

« إنها كائنات ذات حياة منفصلة تمامًا .. وهى محتشدة فى مكان اسمه (دلتا) .. لا أعرف المزيد .. »

* * *

هذه آخر كلمات (عماد بدوى) ..

لا أعرف مكانًا اسمه (دلتا)...

لا أعرف سوى دلتا النيل ذاتها ... هناك ألف شركة باسم (الدلتا) .. لكن ماذا تفيد الظلال من شركة بهذا الاسم ؟!

كنت أفكر فى هذا وأنا أنظر إلى جثته التى سقطت على الأرض .. نصف جسده كان فوق مقعد من الخيرزان في شرفة داره المسقوفة ، والنصف الآخر كان يتدلى بلا حراك بين نباتات الظل .. السلحفاة تزحف بعيدًا سميجة كعهدى بها ..

من فمه ما زالت الرغوة البيضاء تتساقط ، ونظرة الرعب فى عينيه ..

السماعة تتدلى من الهاتف .. ذلك المشهد الختامى الذى يخبرك أننا فى فيلم رعب .. سأحتاج إلى وقت طويل حتى أجد فيلم رعب لا تتدلى فيه سماعة الهاتف ..

قال الضابط وهو يتأمل المشهد :

ـ « لست طبيبًا لكنها نوبة قلبية بلا شك .. هل لديك رأى مخالف يا دكتور ؟ »

هززت رأسى أنْ لا .. أى طفل يمكنه أن يدرك أنها نوبة قلبية .. لكن ما الذى سببها ؟.. أى ذعر شعر به عماد فجعله يهرع إلى الشرفة ثم يتعثر فيسقط ؟

أعتقد أنه كان يريد فتح الشرفة .. كان يريد بعض الهواء .. ربما كان يأمل أن يسبق الموت إلى ضوء الفجر ..

كان لابد أن أطلب الشرطة ؛ لأن الشقة مغلقة على الرجل وهو لا يفتح الباب ...

ما أغرب حياتى !.. لا أذكر كم ألف مرة وجدت فيها جثة ووقفت أرد على أسئلة الشرطة .. فلو كانوا يحتفظون بسجلات دقيقة لاتهمونى بأننى سفاح ..

كنت أعرف جزءًا من القصة ..

لقد حاصرته الظلال فى شقته ، وأفزعته لدرجة الموت ، أو ربما اعتصرت قلبه فعلاً ..

بالتأكيد هذا هو ما حدث ..

اتصل بى وأخبرنى .. أخبرنى بماذا ؟.. لا قيمة لما قاله تقريبًا .. لكنه ترك السماعة وجرى للشرفة ، ثم سقط وصرخ تلك الصرخة التى سمعتها ..

هو قال : إن الظلال موجودة فى مكان يدعى دلتا .. أنا رأيت ذلك الظل فى الشقة (وجدت أن الظل يرسم شيئًا ما .. رفع ذراعيه على شكل ضلعى مثلث ، وجعل كفيه للسقف ، ثم أنزلهما .. إنه يستطيل بلا شك ..)

الظل لم يتكلم مع (عماد) ، لكنه رسم له تلك العلامة .. والعلامة معناها دلتا .. عندما سأل عماد الظل عن مكان الآخرين رسم علامة دلتا ...

عندما غادرت الشقة كنت أغلق فاصلاً آخر من حياتى .

إنه ستار آخر يسدل فوق ذكرى من ذكرياتى ، ووجه لن أراه ثانية أبدًا ..

لم أكن أهيم حبًا بعماد ، لكنك بالتأكيد لا تريد أن يموت كل من لا تحمل لهم حبًا ..

ترى كم نقص وزنه لحظة الوفاة ؟!.. هل فهم السر ؟!.. أين ذهبت تلك الطاقة التى تحدث عنها ؟!

هو الآن يعرف ..

بالتأكيد يعرف ..

تلك الحكمة الكاملة التى نظفر بها بعد فوات الأوان ، وعندما لا نستطيع الاستفادة من هذا الذى عرفناه ..

* * *

كنا الآن فى العاشرة صباحًا والشمس تغمر الكون ، فيصعب عليك أن تصدق أن هذه الكوابيس حدثت ليلاً..

عرجت بسيارتى على مطعم ، فابتعت بعض شطائر الفول والطعمية .. هذا يضفى الكثير من الأمل على الحياة . فقط سوف ألتهم هذا الإفطار وأشرب كوبًا من الشاى ، ثم أنام عدة أعوام .. لن أستطيع الذهاب للعمل اليوم ..

لقد اتصلت ببعض أرقام الهاتف التى وجدتها فى شقة عماد ، وقد حضر بعض أقاربه .. سوف يقومون باللازم ..

عدت لشقتى وأعددت كوب الشاى ، بعد ما جمعت ثياب عماد المتناثرة ، شاعرًا بالحسرة ..

هنا دق جرس الباب ..

شخص سمج آخر على ما يبدو .. لو أخبرونى أن علىَّ أن أذهب إلى قريتى الآن لأن هناك من يحاول الاستيلاء على الفدان بوضع اليد و .... فلسوف ....

الشخص السمج كان (عزت) ، وكان منتعشًا كالمصيبة .. قال لى :

ـ « قدرت أنك لم تنم بعد .. هل تفطر ؟ »

ـ « سمه عشاء .. لا أعرف بالضبط .. هى ليلة مع ظلال تتحرك وصديق يموت وتعقيدات من هذا النوع . هل تتناول شطيرة من الفول معى ؟ »

قال فى كبرياء ساخرة :

ـ « معدتى لم تعد تتحمله .. لقد اعتادت الهامبرجر كما تعرف .. لن أعطلك كثيرًا على كل حال .. »

ـ « إن الأخبار الطيبة تنهمر علىّ .. »

ناولنى صورة فوتوغرافية أخرجها من جيبه ، وقال :

ـ « هذه صورة من مقدمة كتاب الظلال .. لعلها تروق لك !.. »

انحشرت اللقمة فى حلقى ، حتى اضطررت إلى ابتلاع المزيد من الماء .. ثم سألته بصوت مختنق :

ـ « كتاب ماذا ؟! »

ـ « كتاب الظلال .. إنه كتاب سحر الويكا .. حسبتك تعرفه .. »

قرأت عن (الويكا) وعرفت أنهم يستعملون كتابًا اسمه (كتاب المرايا) ، لكن (كتاب الظلال) هذا غريب على .. وهكذا بدأت بعض الصور تتداعى فى ذهنى ..

قلت له وقد طار النوم من عينى :

ـ « تعال واجلس واحك لى .. »

ـ « أحكى عن أى شىء ؟ »

ـ « السؤال هو الإجابة !.. سوف تحكى لى عن أى شىء يخطر ببالك .. تخيل أنها جلسة نفسية تمارس التداعى الحر .. خذ .. اشرب هذا الشاى وسأعد لنفسى كوبًا آخر .. هلم .. يا لك من أحمق !.. ألن تكف عن هذه النظرة البلهاء وتغلق فاك قبل أن يدخله الذباب ؟! »

* * *

ـ 2 ـ

« لو أمرت القمر لهبط ، ولو أردت أن أوقف النهار لتمهل الليل فوق رأسى .. لو أردت أن أبحر فى البحر فلا حاجة لى إلى قارب .. ولو أردت أن أحلق فلا وزن لى .. »

* * *

ظل (عزت) يتكلم حتى الظهيرة ..

كنت أسمعه وأنا أعيد تأمل الصورة الفوتوغرافية مرارًا .. وفى كل لحظة أوقن أن القصة تبدأ من هنا ..

(جاردنر) أنذر أتباعه بأن ينقلوا الكتاب ولا ينسخوه .. ما قام به عزت فعلاً هو أنه التقط عدة صور للكتاب .. هذا نوع من النسخ بلا شك ..

أنا أؤمن أن هؤلاء مجموعة من المخابيل ، لكنى كذلك أؤمن بوجود السحر الأسود .. أى إننى أقبل جانب السحر فى القصة ، وأرفض الجانب الدينى المتعلق بآلهتهم تلك .. كما قلت ، هناك حقبة فى تاريخ البشرية يعرفها كل أنثروبولوجى ؛ هى حقبة (السحر كدين) .. إن الويكا تمتّ لهذه الحقبة بالذات ، وما فعله جاردنر هو إعادة إحيائها .. ومن الممكن أن هناك جزءًا لا بأس به من السحر الفعال ظل وسط هذا النصب ..

(عزت) أعطى نسخة من الصورة لذلك الفنان الذى نسيت اسمه .. لكن ماذا عن الأم ؟.. ما دورها فى القصة ؟.. على الأرجح هى تلقَّت نصيبها من لعنة عامة أصابت البناية كلها ..

هنا يبرز سؤال : لماذا لم يُصَب عزت ؟.. المنطقى أنه أجدر الناس بالإصابة بهذه اللعنة ...

الجواب كما أعتقده : لأن تلك الساحرة الأمريكية المجنونة مالت إليه .. مست اللعنة من حوله ، لكنه ظل حيًّا ؛ ولهذا أنا مرشح بشدة لأتلقى عقابى ..

لكن كيف أبرهن على كلامى ؟

عدت أتأمل تلك الصورة ، وأقرأ المكتوب عليها :

B tjohmf mjof gspn uif CPPL PG TIBEPXT Uipv tibu dpqz opu , mftu uif TIBEPXT tibu efbsu uif mjwjoh, spbn uif fbsui mjlf uif voefbd, uhbu jt uif ljohepn pg TIBEPXT . ofbs Ejbob uifz tibmu cf

فى ذكاء قال عزت :

ـ « هذا نوع من الشفرة .. »

يا لك من عبقرى !.. لو لم تكن موجودًا لهلكنا جميعًا !..

أمسكت ورقة وقلمًا وقررت أن أجرب طريقة (إدجار آلان بو) فى الحشرة الذهبية .. لا أحد يستعمل هذه الأساليب الآن .. لكن لنفترض أن (جاردنر) كان أحمق..

حرف t شائع جدًّا فى اللغة الإنجليزية .. يليه حرف a .. ما هو الحرف الأكثر شيوعًا فى تلك الشفرة ؟..

تكرر حرف u 17 مرة ..

تكرر حرف b 15 مرة ..

الطريقة التى اتبعها يعرفها خبراء الشفرة باسم (الهجمة الأنتروبية entropic attack) .. لو افترضنا أن كل حرف u يشير إلى حرف t وكل حرف b يشير إلى a ، فإن بوسعى القول : إن كل تكرار لثلاثية uif معناه كلمة the ..

وفجأة جاءنى الحل كالصاعقة ، فصحت :

ـ « يا لى من أحمق !.. »

قال عزت باسمًا :

ـ « جميل أن يصل المرء لحقيقته فى النهاية ! .. »

قلت دون أن أكترث به :

ـ « الشفرة تافهة جدًا .. هذا الجاردنر لم يكن ذا ذكاء خلاق .. فقط هو استبدل بكل حرف الحرف التالى له فى الأبجدية .. هكذا تحولت a إلى b و c إلى d .. ومن حسن حظه أن كلماته لا تحوى حرف z .. فأنا شغوف بمعرفة كيف كان سيتصرف وقتها .. »

ثم أمسكت بالقلم :

ـ « هل تحفظ ترتيب الأبجدية ؟ »

ـ « لا .. لم أراجعها منذ كنت فى الصف الأول الإعدادى .. »

ـ « نفس الشىء معى .. الترتيب يختلط خاصة فى الجزء المظلم بعد حرف P .. سوف أحضر القاموس لنتذكر الترتيب الصحيح .. »

ورحت أقرأ حرفًا حرفًا وأخطه ـ بعد التصحيح ـ على الورق ... وهكذا ولدت الرسالة الجديدة :

A single line from the Book of Shadows thou shalt copy not , lest the shadows shalt depart the living, roam the earth like the undead, that is the kingdom of shadow . Near Diana they shalt be.

قال عزت :

ـ « ما هذه اللغة ؟.. وما موضوع Shalt هذا ؟.. »

ـ « الرجل نصاب ، لذا يحاول تقليد الإنجليزية القديمة كأنه مخطوط .. thou بدلاً من You .. و shalt بدلاً من will . دعك من الكلام المقلوب ونفى الفعل مباشرة على غرار copy not .. »

ـ « و ما هو المكتوب إذن ؟ »

ترجمت بصوت عال :

ـ « أنت لن تنسخ سطرًا واحدًا من كتاب الظلال ، وإلا هجرت الظلال الأحياء وجابت الأرض كالموتى الأحياء .. تلكم هى مملكة الظلال .. قرب ديانا سيكونون .. »

بدا عليه الرعب .. واضح أن التهديد قد نفذ حرفيًا ..

ـ « ولماذا يلجأ أحد إلى كتابة تحذير بالشفرة ؟!.. المفترض فى التحذير أن يفهمه الجميع .. »

ـ « هذا التحذير موجه لجماعة الويكا فقط .. لا يفترض بالأغيار أن يقرءوه أصلاً .. »

ثم عدت أسأل :

ـ « ديانا .. أرتميس .. ربة القمر عند الإغريق ، والتى كانت ربة الصيد ثم غيروا تخصصها .. ما دورها فى القصة ؟.. »

ـ « لا تنس أن احتفال الويكا كان عند اكتمال القمر .. كُنَّ يقلدنها فيقفن بهذه الطريقة .. »

ووقف ورفع يديه لأعلى ووجه الكفين للسماء ليبدو كله على شكل حرف Y ..

هنا تذكرت هذا المشهد ..

الظل الذى استجوبناه لم يكن يرسم لنا علامة دلتا ، وإنما كان يشير إلى ديانا ..

(قرب ديانا سيكونون) .. (الآخرون عند ديانا)...

الدائرة تضيق .. لكن أين أجد ديانا هذه ؟

* * *

- 3 -

على الشاشة راحت (سعاد حسنى) تغنى (يا واد يا تقيل) .

عندما يقرر (صلاح جاهين) أن يكتب كلمات مرحة فإنه يفعل هذا بشدة .

كل قاعة السينما من الشباب تقريبًا ، وقد وقفوا فى طوابير لعدة ساعات للظفر بمقعد .. أنا و(عزت) المسنان الوحيدان الكئيبان هنا ..

لقد كان فيلم (خللى بالك من زوزو) ظاهرة وقتها ، وظل يُعرض لفترة طويلة جدًا .. يصعب اليوم أن أفهم السبب ، لكنه فيما يبدو مس شيئًا ما عند الشباب المصرى وقتها ، دعك من جمال بطلته ووسامة بطله ..

(عزت) نائم .. هذا هو الصديق المناسب لى فعلاً..

كنت أراهن على هذه النقطة : (هانى فهمى) كان مع خطيبته فى سينما تعرض هذا الفيلم ، عندما اكتشف أن ظله حر يقف أمام الشاشة ويحجب الصورة .. هكذا حكى لى .. بما أن هذا الفيلم ثابت للأبد فى دور العرض ، فقد أعدت استعراض الدور التى تعرضه .. وكانت دهشتى عظيمة عندما وجدت أن هناك دار

عرض اسمها (ديانا) .. الآن أتذكر أن هذه بالفعل دار العرض التى دخلها الفتى ليلتها والقرينة من بيت خطيبته..

أين يمكن أن تحتشد الظلال ؟.. هل من مكان أنسب من مملكة الظلال نفسها ؟.. هل يوجد أفضل من دار سينما ؟..

وماذا عن دار سينما اسمها (ديانا) ؟.. ألا يحقق هذا حرفيًا عبارة (قرب ديانا سيكونون) ؟..

لم يكن عزت مقتنعًا ، لكنى أصررت على أن نذهب للسينما .. ندخل الحفلة الأخيرة وننتظر ..

ونظرت إلى ساعتى ..

أعتقد أن الفيلم اقترب من نهايته .

هززت (عزت) لأوقظه وقلت له : إننا لو فقدنا أثر بعض سنلتقى عند باب قاعة العرض هذه فى الثانية صباحًا .. نهضت فى صمت أتحسس موضع قدمى فى الظلام ، متجهًا إلى الحمام ..

كانت دورة المياه خالية ، وفى ذلك الزمن كانت تفتقر إلى أية عناية أو نظافة ..

دخلت واحدة من الدورات المغلقة ، وفرشت منديلين ورقيين على القاعدة ، وجلست ..

فى جيبى كشاف وأشياء أخرى .. وطبعًا معى الصورة ..

بعد دقائق سمعت من يمشى بالخارج .. يسعل .. يفتح باب دورة مياه مجاورة ثم يغلقها عليه..

أعتقد أن هذا عزت . لكنى سأنتظر ولن أكلمه الآن ..

هكذا بدأ الانتظار ، وهو نوع حقيقى من التعذيب البرومثيوسى .. تعذيب على مستوى الجلسة المرهقة والظلام والملل والرائحة .. لكن لا أجد حلاً آخر .. لا أعرف مكانًا آخر يمكن أن نتوارى فيه سوى هذا ..

أخيرًا أسمع جلبة الناس ..

أسمع خطوات عالية وصفيرًا ..

لقد انتهى الحفل الأخير كما هو واضح ..

ونظرت إلى ساعتى .. إنها الواحدة إلا الربع ..

بعد ساعة وربع نغادر هذا المكان .. وبعد ساعة وربع يتضح أننى أحمق كالعادة .. وأتلقى اللوم !

* * *

فتحت الباب وخرجت ..

بعد لحظات كنت أقف مع (عزت) فى رواق مظلم خارج دورة المياه ..

قال لى وهو يضع منديلاً على أنفه :

ـ « تبًا لك ..!.. لو كنت مخطئًا فإننى .... »

ـ « صه ..!.. ما أردت إلا الخير ، ولست مسئولاً عن نظافة دورات المياه كما تعلم .. »

أعتقد أن العاملين قد رحلوا جميعًا .. لا أعتقد أنهم ينظفون الدار بعد انتهاء الحفلات ، إنما سيتم هذا صباحًا ، وعلى الأرجح قام المحاسب بجمع الحصيلة وأغلق خزانته أو درجه ، وقام عامل العرض بلف بكرة الفيلم وأغلق مقصورته ..

لقد تحولت دار السينما إلى مدينة أشباح ..

يجب أن تعرف أن دور السينما فى ذلك الزمن كانت فى حالة سيئة فعلاً ، قبل أن تبدأ موضة سينما المول و(الملتيبلكس) الحالية . لهذا كانت السينما صالحة جدًا كى تكون مسكونة بالأشباح ليلاً ..

كنا فى حالة بالغة من الإرهاق بسبب الانتظار الطويل الذى جعل الأدرينالين يتدفق فى عروقنا بشدة .. بعد هذا يزول

الأدرينالين ، فتشعر كأن الحياة ذاتها فارقت جسدك .. لا توجد عضلة واحدة قادرة على التماسك ..

قال لى (عزت) وهو يلهث :

ـ « هل من خطة ما ؟ »

ـ « لا توجد خطة .. سنقوم بجولة تفتيشية .. لو قابلنا الظلال فلسوف أحرق هذه الصورة الفوتوغرافية برهانًا على حسن النية .. »

نظر إلىَّ فى الظلام .. أعتقد أننى أعرف ما يفكر فيه ..

مشينا فى الرواق وشعرنا بهواء بارد يتسلل لنا ..

للمرة الأولى أرى مدخل السينما بالأفيشات واللوحات المعلقة وقد ألصقت عليها الصور ، وشباك التذاكر المغلق . أرى هذا كله من الداخل .. ووحدى ..

كان هذا هو باب السينما .. شبكة حديدية ثقيلة تم إسدالها ، لكننا نرى الشارع من خلفها .. الشارع المظلم ، حيث بدأت قطرات ماء تتساقط ، وثمة كلب ضال يلتهم شيئًا جوار عمود نور ..

مشهد كئيب لكنه أجمل مما نحن فيه . نحن غير قادرين على الخروج .. لقد أغلقت دار السينما علينا حتى الصباح ....

على ضوء الكشاف صعدنا الدَّرَج .. وعيناى تتلمسان الجدران ...

كانت الكافتيريا أمامنا فى الطابق الأول .. هناك ضوء خافت ينبعث من ثلاجة مشروبات تهدر بصوت كئيب ، بينما الكافتيريا نفسها خالية تمامًا .. خزانة زجاجية كان يوضع فيها الفيشار ، وأرفف كانت عليها الحلوى والشطائر وأدوات الشاى ... هناك سخان ماء عملاق ، وهناك آلة عمل فيشار ... ثمة ثلاث أنابيب عملاقة من غاز البوتان ..

فأر ركض جاريًا ليغيب فى شق فى الجدار قرب الأرض .. عامة ليست الفئران من المناظر الجميلة ، لكنه أشعرنا بشىء غير قليل من الألفة .. هذا كائن حى من مخلوقات الله .. كائن طبيعى يجرى ويأكل ويشرب ويموت ...

لا يوجد شىء هنا ...

فجأة هتف عزت :

ـ « هناك ! .. »

ونظرت بسرعة فأدركت أننى كنت على حق ..

* * *

ـ 4 ـ

رأيت هذا الظل يتحرك على الجدار جوار الثلاجة ..

كان ظل إنسان يفتح ذراعيه عن آخرهما ، ثم انحدر نحو الجدار المقابل ، فاستطال ليبلغ السقف .. ورأيت بقعتيه الحمراوين اللتين هما عيناه ...

نظرت فى اتجاه مصدر الضوء فلم أجد أى جسم مادى .. لقد كان هذا ظلاً حرًا ...

تراجع عزت لحظة ... ثم رأيته يمسك برأسه ويترنح..

(عزت) .. ماذا بك ؟!.. هل أصبت بنوبة (أديسون) التى أخشاها ؟!

لكنه كان يغمض عينيه . وفجأة همس :

ـ « روزالين تتصل بى بالتخاطر .. أنا متأكد من هذا .. إنها تعرف ما أفعله .. تقول لى : إنه لا جدوى .. إننا فى خطر داهم .. يجب أن نفر .. »

ـ « فات أوان هذا .. »

- « تقول لى : إن الظلال تتكاثر .. تتغذى بالموت والذعر والاحتضار .. ذعرنا يجعلها أقوى .. »

ونظرت إلى السقف حيث كان هذا الظل يطل علينا من أعلى ... ثم راح يتحرك مبتعدًا داخلاً ممرًا جانبيًا ..

هرعت ألحق به ..

كان هناك باب خشبى ذو مفصلات زنبركية كأبواب الحانات .. أزحته جانبًا فوجدت أننا نقف وسط عشرات المقاعد الخشبية ..

هذا - كما يبدو - مدخل من مداخل الدرجة الثالثة ..

على الأرض عشرات الأكياس وقشر اللب وأعقاب السجائر والزجاجات الفارغة .. علامات جمهور الدرجة الثالثة (الترسو) ..

لكن من أين يأتى الضوء ؟

هناك مصباحان خافتان يرسمان كلمة Emergency exit .. ومع الظلام الدامس بدت إضاءتهما قوية جدًا ...

مشيت أكثر .. ومن خلفى عزت ..

نحن هنا نرى الشاشة عن قرب .. الشاشة التى كانت سعاد حسنى تغنى عليها وترقص منذ ساعات ، لكنها الآن صارت بيضاء ..

ليست بيضاء تمامًا .. هناك عشرات الظلال تتراقص عليها رقصة مجنونة ..

إنهم مخابيل فعلاً .. هذه الرقصة لا يمكن فهمها ولا تقود لغرض ما ..

ثم أدركت أنهم غاضبون ..

لقد دخلنا مملكتهم عندما بدأ الحفل ..

ظلال .. ظلال ..

ظلال .. ظلال ..

كم من بشرى مات وهو يمسك بقلبه كى يولد ظل من هذه الظلال ؟!

ومر ظل من فوقنا فانحنينا .. وهى حركة لا معنى لها لأنه شىء يستحيل أن تتحاشاه .. لكنه ارتمى على جدار مقابل وتكسر فوق المقاعد الخشبية ...

صحت بأعلى صوتى فتردد الصدى فى القاعة كلها :

- « أنا لم آت هنا إلا لأثبت حسن نيتى .. هذه الصورة تم استنساخها بطريق الخطأ .. هل تفهمون هذا ؟ »

ومددت يدى فى جيبى ولوحت بالصورة الفوتوغرافية .. ثم أخرجت القداحة وأشعلتها وقربتها من الصورة .. بدأت تحترق .. تذوب .. تحترق .. تذوب .. حتى شعرت بلسعة النار على أناملى ..

كانت الظلال متصلبة ترمقنى ..

حتى تلاشت الصورة ..

فى اللحظة التالية شعرت بألم شديد فى قلبى ... أنا عاجز عن التنفس .. ما هذا الذى يحدث ؟

صرخ (عزت) فى رعب :

- « رفعت !.. انظر إلى الظلال ! »

ونظرت إلى الظلال على الجدار المجاور لى فرأيت ظلى وأنا أمسك بصدرى .. فى الوقت ذاته يحيط بظلى ظلان عملاقان يمد أحدهما يده فى صدرى ..

لكن ...

ظلى يتحرك بشكل منفصل عنى .. إنه يقاوم ، لكنهما يجرانه .. يبتعد عنى وقد صارت له حياة خاصة ..!

فهمت ..

إن الصورة كانت تحمينى طوال هذا الوقت ، وعندما أحرقتها لم يعد لديهم ما يمنع من انتزاع ظلى وانتزاع حياتى ذاتها .. ظلى ينضم لهم ، وعما قريب يتحرك على هذه الجدران ، بينما أسقط أنا جثة خالية من الحياة ..!

نوبة قلبية ..

من سيجدون الجثة صباحًا لن يجدوا إلا كهلاً أصيب بنوبة قلبية ..

ولكن ....

* * *

- 5 -

بآخر ما تبقى فى صدرى من حياة ، مددت يدى إلى جيبى .. أخرجت الشىء ..

ونظرت إلى ظلى على الجدار ، فوجدت المدية فى يده ..

رفعت المدية وهويت بها .. بمعنى آخر : جعلت ظلى يهوى بظل المدية على الظلال التى تحيط به ...

رأيت الظلين يبتعدان .. يتخليان عن الظل الذى كانا ينتزعانه من مكانه ..

أحد الظلين تهاوى ساقطًا ، والآخر فر مذعورًا ...

وعندما رفعت يدى وجدت أن الظل رفع يده معى .. لقد صار لى من جديد .. إنه ظلى مرة أخرى .. ومن جديد عاد قلبى ينبض ، والدم يسرى فى أوصالى ..

هتف (عزت) المذعور :

- « ماذا حدث ؟! »

- « قلت لك : إن لدى تلك المدية .. (الأثامى) .. أنت تعرف أنها تحمل طاقة نفسية فى مقبضها الأسود .. وقد خطر لى أنها

قادرة على الدفاع عنى ؛ لأنها تنتمى إلى الويكا .. إن ظل المدية يطعن الظل بنفس المنطق الذى تطعن به المدية نفسها شخصًا حيًا .. »

- « هل تعنى أن بوسعنا قتل الظلال بهذه الطريقة ؟ »

نظرت إلى أعلى ..

ظِلّ يتحرك على الشاشة ..

ظل يركض على الأرض ...

ظل يتلوى بين المقاعد ..

ظل يلتف من حولنا ..

ظل على الباب ..

ظل يصعد الدرجات ..

ظل بين مقعدين ..

ظل ينتفض على الشاشة ..

ظل يركض على الجدار الشرقى ..

ظل يملأ السقف ..

ظل ينحدر من أعلى ..

ظل يركض بين أقدامنا ..

ظل يتلوى بين المقاعد ..

ظل يلتف من حولنا ..

ظل فوقى ..

ظل على الأرض ..

ظل يصعد الدرجات ..

ظل بين مقعدين ..

ظل ينتفض على الشاشة ..

ظل يركض على الجدار الغربى ..

ظلال .. ظلال .. المئات منها ..

لن تجدى هذه الطريقة أبدًا ..

* * *

الظلام التام أو الضوء الساطع ..

لا سبيل للقضاء عليها إلا الظلام التام أو الضوء الساطع ..

الظلام لا يجدى لأنها تتوارى فيه .. إذن هو الضوء الساطع ..

ـ « اتبعنى يا عزت .. »

ورحت أصعد الدرجات لاهثًا .. أخيرًا وصلت لتلك البوابة بين الصالة والدرجة الثالثة ، فعبرتها .. كانت موصدة طبعًا ، فتسلقتها ، وهذا لم يكن صعبًا ؛ لأنها بارتفاع طفل ..

ـ « رفعت .. إنهم يترصدون بك !!.. »

نظرت إلى الجدار فوجدت ثلاثة ظلال تهاجم ظلى .. رقصت رقصة القتال وجعلت ظلى يوجه إليها ثلاث طعنات قاتلة .. ثم واصلت تقدمى ..

مشيت بين مقاعد الصالة لاهثًا .. أصعد درجات أخرى نحو البلكون ..

هناك باب فى نهاية البلكون .. أعبره وأصعد المزيد من الدرجات ..

ـ « لا تتأخر عنى يا عزت .. »

هنا مقصورة العرض .. وهى مغلقة بقفل طبعًا ..

لكن هناك محولات النور كلها فى صندوق جدارى .. لا أعرف ما هو صحيح وما هو كفيل بصعقى ، لكنى على كل حال مددت يدى إلى أول رافعة وجذبتها لأعلى فأحدثت صوتًا ..

تراك !

رأيت قطاعًا من الأنوار الجانبية يضىء ...

تراك !

المزيد من الأنوار يسطع ..

سوف أقضى عليها .. سوف أحيل صالة السينما إلى جحيم من النور ليست فيه بقعة ظل واحدة ..

لكن ماذا بعد ذلك ؟

لا أدرى ..

* * *

- 6 -

انتشر النور ليغمر قاعة السينما كلها ..

لكن لم يكن ساطعًا بما يكفى ، ولم يغط كل شىء .. هكذا ظلت هناك أماكن عديدة سخية بالظلال .. والأدهى أن الظلال كانت تخرج للصالة وترجع بلا توقف .. لابد أن ردهات السينما تمتلئ بها ..

وزحف ظل نحوى ليعتصر قلبى ، فطعنته بالمدية ...

انثنى حول نفسه واستطال حتى مس سقف السينما ، ثم تهاوى ...

إنهم يغتذون بالرعب والذعر ..

إنهم ينمون بلا توقف ..

قلت لـ (عزت) :

ـ « لا جدوى .. لن نستطيع القضاء عليها .. سوف ينهكوننا إلى أن نموت .. يجب أن نخرج .. »

ـ « وماذا عن حرق المكان ؟ »

ـ « النار لن تفعل شيئًا .. سينتقلون إلى مكان آخر .. إنها ظلال .. »

ـ « ولكن كيف نفر ؟ »

كنت أفكر فى الدرجة الثالثة .. دائمًا ما يكون هناك بـاب يقود إلـى زُقـاق خلفـى ، وهـذا البـاب غالبًـا من الخشـب غير المدعم بالحديد ..

هكذا عدت أنزل السلم الطبقى مارًا بـالبلكون فالصالـة فالترسو .. أنتقل من علية القوم إلى الطبقة المتوسطة فالفقراء ....

ورحت أفتش عن بـاب ، بينمـا الظـلال ترقص تلك الرقصـة المجنونـة من فوقى ..

هناك الباب الذى دخلنا منه .. وهنـاك بـاب جانبى آخر عليـه قُفل ..

طلبت من (عزت) أن يساعدنى ؛ فقلبى واهن ولا أقدر علـى تحطيم هذا القفل ..

التقط مقعدًا خشبيًا وراح يحـاول بقدم خشبية أن يهشـمه . ضربة .. وأخرى .. فأخرى ..

فى النهاية هوى القفل محطمًا ... وانفتح الباب ..

أزحته بقدمى فرأيت الزقاق المظلم القذر الذى كنت أحلم به .. صوت نباح الكلاب من بعيد يعيدك للحياة ..

هنا خطرت لى فكرة ..

ـ « من جديد أفكر فى الأمر .. أعتقد أن فكرة حرق المكان قد تصلح .. »

ـ « الظلال لن تجد مشكلة .. أنت قلتها .. »

ـ « لا أتحدث عن الظلال .. أتحدث عن إرغـام البلديـة علـى هدم هذه السينما ، أو انهيار سقفها ... فـى الأسـاطير الإغريقيـة كانت ديانا أو أرتميس ابنة زيوس وليتو وأخت أبوللـو .. كـانت هناك لعنة من لعنات (هيرا) قضت بأن الطفلين لن يولدا إلا فـى موضع لم تره الشمس قط .. هكذا قامت ليتـو بتعويـم أرض من قاع المحيط ليولد عليها طفلاها .. »

قال فى غيظ وهو نافد الصبر :

ـ « الخلاصة .. ماذا تريد قوله ؟ »

ـ « أريد أن تغمر الشمس هذا المكان .. لو كان هؤلاء يريـدون ديانا فإن الشمس تقضى على ديانـا .. سنحيل هـذه السينما إلـى خراب .. فإمـا أن يهدموهـا ، وإمـا أن يتهـاوى السقف وتدخـل الشمس مع ساعات الصباح القادمة .. »

ثم قلت لاهثًا ، وأنا أستند إلى الباب وأناوله القداحة :

ـ « لم تعد بى قوة تسمح بالعودة .. دعك من أنك منيع كما أرى بوضوح .. سوف تعود إلى الكافتيريا وهناك تجد ثلاث أسطوانات عملاقة من غاز البوتان .. سوف تفتحها جميعًا ثم تتراجع وتشعل النار بالقداحة فى أى شىء قريب قابل للاشتعال .. بَعثِر بعض الأوراق المحترقة فى الصالة .. عندما تلحق بى هنا سيكون الغاز قد بلغ اللهب .. »

نظر إلىَّ فى قلق ، ثم تناول القداحة واندفع يركض عبر الصالة ..

انتظرته فى قلق على الباب الموارب ، وعيناى لا تفارقان ظلى الذى ارتمى على أرض الشارع ..

إنه ملكى .. ما زال تحت سيطرتى ..

* * *

لقد أنذرتنى الكينونة منذ زمن ..

قالت لى إن علىَّ ألا أثق بالظلال ..

قالت لى إن العالم كما نعرفه فى خطر عظيم ..

معنى كلامها أننى فشلت .. على الأرجح ، لن أتمكن من عمل شىء ..

قد أقضى على الظلال مؤقتًا .. لكن الاحتمال الأكبر أنها ستفر وستجد لنفسها موضعًا آخر (قريبًا من ديانا) ...

لربما احتجنا إلى طلب معونة من فتاة الويكا تلك ..

لربما منحتنى الكينونة حلاً ..

لا أعرف .. فقط أدرك يقينًا أن الأمر أكبر منى وأن ما سنحصل عليه هو فترة هدنة لا أكثر ..

لقد حكى لى (عماد) قبل وفاته عن حوادث مماثلة فى أمريكا وإنجلترا .. معنى هذا أن القصة تكررت .. هناك من نسخ كتاب الظلال فلحق به انتقام الظلال ..

فى كل مكان من العالم تحتشد الظلال الغاضبة لتعتصر قلوب ضحاياها ..

إنهم ينشرون الذعر والهلع ..

وينمون ....

ينمون ...

* * *

جاء (عزت) راكضًا لاهثًا وهو يحمل رزمة من أوراق كراريس المدارس وجدها فى مكان ما ، وراح يشعل أعدادًا منها ويبعثرها فوق المقاعد . بعض المقاعد كان من الخشب الجاف وقد بدأ يشتعل فعلاً ..

قلت له :

ـ « هيا بنا .. »

وغادرنا السينما من باب الدرجة الثالثة . فقط نظرت إلى الخلف لأرى ظلالاً طويلة تمتد من الباب عبر أرض الشارع نحونا .. كأنها تحاول الظفر بنا ..

كنت ألوح بالمدية كالمخبول ونحن نبتعد بسرعة .

سيارتى تقف هناك أمام مدخل السينما الرئيس .. باردة هامدة .. لكنها تمنحك الأمان والثقة ..

ركبنا وأدرت المحرك ..

فرو فرو فرو ... بوم !

لم يكن هذا المحرك الذى انفجر ، ولكن الصوت من دار السينما الفارغة التى انفجرت فيها ثلاث أسطوانات من غاز البيوتان ..

فليكن الضرر بليغًا .. يا رب .. فليكن الضرر بليغًا !..

السماء تتلون بلون رمادى ؛ لأن الفجر قد اقترب ، لكنى كذلك أرى سحابة الدخان الكثيفة ..

فلنفر إذن ..

* * *

قال لى (عزت) وهو ينظر عبر النافذة الخلفية :

ـ « هل قضينا على هذه الظلال ؟ »

قلت دون أن أنظر إلى الخلف :

ـ « بالطبع لا .. هذا مجرد قرار إزالة .. نوع من المياه التى يرشها صاحب المقهى لمنع الأطفال من اللهو أمام مقهاه .. لكنهم سيتجمعون من جديد ويواصلون اللعب .. »

ـ « والنهاية ؟ »

ـ « لا أعرف .. سوف تتكاثر هذه الأشياء للأبد ... أعتقد بلا مبالغة أنها نهاية الحياة كما نعرفها ...سيكون عليك أن تتصل بروزالين هذه طالبًا النصح .. ربما كانت تملك الإجابة .. وربما لا .... »

* * *

ربما هو زمن مقتطع ليس لنا ، وربما لحقت بى هذه الظلال فى دارى الليلة بالذات ، لكن الوقت كان كافيًا لأن أعيش فترة أخرى .. فترة تكفى كى أمر بأسطورة الطوطم ...

لكن هذه قصة أخرى .

* * *

د. رفعت إسماعيل

القاهرة

روايات مصرية للجيب

ما وراء الطبيعة
روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والإثارة



د. أحمد خالد توفيق

أسطورة الظلال

أسطورة الظلال ؟ .. كيف لم أحكها بعد ؟ .. أعتقد أنها تناسب الجميع خاصة الأطفال .. كما أنها تحتوى موعظة أخلاقية بسيطة هى ألا تثق فى الأشخاص الذين لا ظلال لهم .

هى نصيحة قديمة قدم الرعب نفسه ، لكننا ننساها دوما .. الأسوأ ممن لا ظل لهم أولئك الذين يتصرف ظلهم بشكل منفصل .. يبدو أن السينما التعبيرية الألمانية قتلت هذا الموضوع بحثا فى أوائل القرن العشرين والأفلام الصامتة الكابوسية الباردة .

مرحبًا بك فى عالم الظلال وقوم الظلال وأساطير الظلال ..

مرحبًا بك فى صالون الدكتور (رفعت إسماعيل) ...

العدد القادم

أسطورة الطوطم

الثمن فى مصر 400
وما يعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم

المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة والإسكندرية

